MINISTRY OF EDUCATION AND TECHNICAL EDUCATION
وزارة التربية والتعليم والتعليم الفني
من روائع الأدب العربي
رحلة عبر الزمن مع أعظم الأقلام التي خلدت الكلمات
قراءة في
البكالوريا المصرية

شكر وتقدير

نتقدَّم بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى الأزهر الشريف، لما بذله من جهود مخلصة في مراجعة هذا الكتاب، وإسهامه القيِّم في ضمان دقة محتواه وسلامته اللغوية والعلمية، واتساقه مع قيم المجتمع المصري وعاداته وتقاليده الأصيلة؛ بما يعكس مكانة الأزهر الشريف العريقة ودوره الرائد في خدمة اللغة العربية، ودعم مسيرة التعليم والارتقاء بها.

مقدمة

أبنائي وبناتي...

ليست كل قراءة تُبقي فينا أثرًا، لكنَّ هناك نصوصًا، إذا اقتربتم منها بصدق، تركت فيكم شيئًا لا يغادركم بسهولة.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم ليس حكاياتٍ تُقرأ ثم تُنسى، بل رحلة في عقولٍ وقلوبٍ صنعت الأدب العربي، وعبَّرت عن الإنسان في لحظاته الأكثر صدقًا؛ حين يضعف وحين يقوى، حين يتردد وحين يختار، وحين يسقط ثم يحاول أن ينهض من جديد.

ستلتقون هنا بشخصياتٍ لا تعيش لتُسلِّيكم، بل لتسألكم:

كيف نفكِّر؟

كيف نختار؟

وماذا نفعل حين نخطئ؟

وستقرءون لكُتَّابٍ لم يكتبوا من خيالٍ بعيد، بل من تجارب عاشوها، وصراعاتٍ خاضوها، وأسئلةٍ أقلقتهم.

إن هذه الأعمال لا يجمعها تشابه الأحداث، بل يجمعها شيء أعمق: أن تُعلِّمكم كيف ترون ما كنتم تمرُّون به دون انتباه، وكيف تُفكِّرون فيما كنتم تقبلونه دون سؤال، وكيف تشعرون بما قد يغيب عنكم في زحام الحياة.

في هذه الصفحات ستجدون قيمًا لا تُقال لكم، بل تكتشفونها: الصدق، والعدل، والمسئولية، والانتماء، والصبر، والوعي، هذه القيم لن تُقدَّم في صورة نصائح، بل ستتكوَّن في داخلكم.. وأنتم تقرءون، وتفهمون، وتعيدون النظر.

ولأن الهدف من هذا الكتاب ليس أن تحفظوا، بل أن تفهموا، وليس أن تجيبوا، بل أن تُفكِّروا.. ستجدون في نهاية كل عمل صفحة بعنوان «حصاد قراءتي»، وهي ليست اختبارًا، بل مساحة لكم:

تفكِّرون، وتتأملون، وتناقشون، ثم تربطون ما قرأتموه بحياتكم.. لتصنعوا منه معنى يخصُّكم.

كيف تقرءون هذا الكتاب؟

اقرءوا بهدوء.. فبعض المعاني لا تظهر لمن يمرُّ سريعًا.

توقفوا عندما يلفتكم؛ فما يشُدُّ انتباهكم قد يكون بداية فهمٍ جديد.

حاولوا أن تعيشوا النص، لا أن تقرءوه فقط.

ولا تبحثوا عن إجابة جاهزة، بل ابحثوا عن صوتكم أنتم داخل ما تقرءون.

إن هذا الكتاب لا يُقدِّم لكم أدبًا تقرءونه فحسب، بل تجربة قد تُغيِّر طريقتكم في النظر إلى أنفسكم وإلى الحياة.

فإن أحسنتم قراءته، فلن تخرجوا منه كما دخلتم.

المؤلفون

منهجية العمل في هذا الكتاب

يختلف هذا الكتاب عن المختارات الأدبية التقليدية التي تكتفي بعرض نصوص قصيرة أو فصول منتقاة من الأعمال الكبرى، كما يختلف عن الكتب النقدية التي تتَّجه إلى التحليل والدراسة الأكاديمية.

فقد أُعدَّ هذا الكتاب وفق منهجية تقوم على المعالجة التربوية الأدبية للأعمال الخالدة في الأدب العربي، بهدف تقريبها إلى طلاب المرحلة الثانوية وإتاحة الفرصة لهم للتعرُّف إلى روائع الأدب العربي في صورة مُيسَّرة ومتكاملة.

وتعتمد هذه المنهجية على:

- اختيار أعمال أدبية تمثل محطات بارزة في التراث الأدبي العربي الحديث والقديم.
- إعادة تقديم العمل في صورة مختصرة تحافظ على فكرته الأساسية وبنائه العام وشخصياته الرئيسة.
- المحافظة قدر الإمكان على السمات الأسلوبية المميزة للكاتب وروحه الفنية.
- إبراز القيم الإنسانية والوطنية والجمالية التي يتضمنها العمل.
- حذف أو تجاوز ما لا يتناسب مع طبيعة المرحلة العمرية للطلاب.
- تقديم مربعات مساعدة وتأملات وأنشطة قرائية تعين الطالب على التفاعل مع النص وتذوقه.

ولا يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون بديلًا عن قراءة الأعمال الأصلية، بل يسعى إلى أن يكون بوابة عبور إليها، ودعوة إلى اكتشاف كنوز الأدب العربي والتعرف إلى أعلامه وأفكاره وقيمه الجمالية.

فإذا أحب الطالب عملًا من الأعمال الواردة في هذا الكتاب، فقد حقق الكتاب أحد أهم أهدافه: أن يفتح باب القراءة الحرة، وأن يقود القارئ إلى النص الأصلي بشغف ورغبة واختيار.

يُتوقَّع بعد الانتهاء من دراسة الكتاب أن يكون الطالب قادرًا على أن:

- يُحلِّل الأبعاد النفسية والاجتماعية للشخصيات الرئيسة في العمل الأدبي مستشهدًا بمواقفها وسلوكها.
- يتتبَّع تطور الحبكة الدرامية (البداية، الصراع، العُقدة، الحل)، موضحًا أثر البيئة (الزمان والمكان) في دفع الأحداث.
- يستنتج الرؤية الفكرية التي يطرحها الكاتب من خلال العمل.
- يبدي رأيًا نقديًّا معللًا في منطقية سلوك الشخصيات أو عدالة النهايات التي اختارها الكاتب للعمل الأدبي.
- يحكم على مصداقية النص في تمثيل الواقع الاجتماعي الذي عاصره الكاتب.
- يوازن بين الفكرة الرئيسة في عملين أدبيين، محددًا أوجه الاتفاق والاختلاف في معالجة الكاتبين.
- يقارن بين مضمون نصين أدبيين ينتميان لبيئتين أو عصرين مختلفين.
- يستخلص القِيَم (الأخلاقية) المتضمنة في نصين مختلفين.

الفهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	حكاياتُ الغريبِ	٦
٢	عودة الرُّوح	١٩
٣	كفاح طيبة	٣٠
٤	الأرض	٤٦
٥	شمس وليل	٥٦
٦	العبرات	٧٢
٧	وا إسلاماه	٨٢
٨	عبقرية عمر	٩٤
٩	رجل تحت الصفر	١٠٤
١٠	صح النوم	١١٤

حكاياتُ الغريبِ

جمال الغيطاني

حكايةُ إنسانٍ غاب اسمُه...
وبقِيَ أثرُه في ذاكرة الوطن

معالجة أدبية تربوية لطلاب
المرحلة الثانوية

حكايات الغريب ومسيرة جمال الغيطاني

نُبْذة عن حياته ونشأته:

وُلِدَ جمال أحمد الغيطاني في التاسع من مايو عام ١٩٤٥ في قرية جهينة بمحافظة سوهاج، ثم انتقل طفلًا مع أسرته إلى القاهرة، فنشأ في حي الجمالية؛ ذلك الحي العريق الذي تتجاور فيه المساجد القديمة والبيوت التاريخية والأزقَّة والأسواق. لم تكُن الجمالية بالنسبة إليه مكانًا للإقامة فحسب، بل صارت عالَمًا كاملًا يسكُن ذاكرته ويغذِّي خياله. فيها رأى وجوه الحرفيِّين والتُّجَّار، وسمع حكايات الباعة والعابرين، وتأمَّل الأبنية التي تحمِل آثار أزمنة مُتعاقِبة؛ فشعَر منذ وقت مبكِّر بأن لكل حجَرٍ حكاية، وأن الأماكن تحتفِظ بأصوات من مَرُّوا بها.

تلقَّى تعليمه الابتدائي في مدرسة عبد الرحمن كتخدا، ثم واصَل دراسته في مدرسة محمد علي الإعدادية، وبعدها التحق بمدرسة الفنون والصنائع بالعباسية، وتخصَّص في تصميم السَّجَّاد الشرقي وصناعة الألوان. أتاحت له هذه الدراسة أن يتعرَّف إلى أسرار الزخرفة وتكوين الأشكال، ولعل أثرها ظهَر في طريقته في بناء النص: تفصيل يقود إلى تفصيل، وصوت يجاور صوتًا، وحكاية صغيرة تفتَح بابًا إلى حكاية أكبر.

بداية الطريق إلى الأدب:

بدأ الغيطاني القراءة والكتابة في سِنٍّ مبكِّرة، واهتم بكُتُب التراث والسير الشعبية وتاريخ القاهرة وعمارتها، كما قرأ لأَعْلام الأدب العربي الحديث واقترب من عالَم نجيب محفوظ. لم يدخل الحياة الأدبية من طريق جامعي تقليدي، بل صنَع ثقافته بالقراءة المتَّصلة والبحث والاحتكاك بالناس. عمل في تصميم السَّجَّاد، واقترب من الصُّنَّاع والحرفيِّين، فتعلَّم أن يلتقط ما قد يغفُل عنه الآخَرون: حركة يد عامل، وصمت رجل مُتعَب، وانتظار أُمٍّ، وخوف جندي، وما تُخفيه الوجوه العادية من حكايات.

كتَب قصته الأولى وهو فتى، ثم نشر عددًا من القصص التي لفتَت الأنظار إلى صوته المُختلِف. وكان يؤمن بأن الإنسان المجهول قد يحمِل من الشجاعة والحكمة ما لا تحمله أسماء مشهورة؛ لذلك جعل كثيرًا من البسطاء أبطالًا لأعماله، أولئك الذين يعبرون التاريخ دون أن تلتفِت إليهم السجلات.

الكاتب في قلب المعركة:

في عام ١٩٦٩ بدأ جمال الغيطاني العمل مراسلًا حربيًّا، فعاش سنوات حرب الاستنزاف قريبًا من الجبهة، وتنقَّل بين المواقع العسكرية ومدن القناة، والتقى الجنود والضباط والمدنيين. لم تكن الحرب لديه بيانات وأرقامًا؛ بل وجوهًا وأصواتًا وتجارب إنسانية. رأى المدن التي غادرها أهلها، والبيوت التي أصابها القصف، والجنود الذين ينتظرون لحظة العبور، والمدنيين الذين تمسَّكوا بأرضهم رغم الخطر.

ومن هذه الخِبرة وُلِد كتاب «حكايات الغريب»، وفيها أراد الكاتب أن يُنقِذ بطولات الناس العاديين من النسيان: أُمٌّ تنتظر، ورجال يقاومون، وسائق يدخل مدينة مُحاصَرة، ثم تتعدَّد الحكايات عن مصيره.

تعلم

- استفاد الغيطاني من خبرته مراسلًا حربيًّا في تسجيل حياة الناس أثناء حرب الاستنزاف وحصار السويس.

البحث عن شكل جديد للحكاية:

لم يكتفِ الغيطاني بالسرد التقليدي؛ فاستخدم في بعض أعماله لغة تستلهم كتب التراث، وفي أعمال أخرى اعتمد على الرسائل والشهادات والمحاضر والتقارير. وفي «حكايات الغريب» نتعرَّف إلى عبد الرحمن من مِلَفِّه الوظيفي، ومن كلام أمه، وتقارير الموظفين، وشهادات مَن رأَوْه أو ظنُّوا أنَّهم رأَوْه؛ فيشارك القارئ في جَمْع صورته دون أن يتلقَّى حقيقة جاهزة.

أهم كتبه ومؤلفاته:

ترَك الغيطاني أعمالًا متنوعة، من أبرزها: «أوراق شاب عاش منذ ألف عام»، و«الزيني بركات»، و«وقائع حارة الزعفراني»، و«التجليات»، و«الزويل»، و«متون الأهرام»، و«سِفْر البنيان»، و«حراس البوابة الشرقية»، و«ملامح القاهرة في ألف سنة»، و«حكايات المؤسسة»، و«دفاتر التدوين». وقد جمَعت كتابته بين ذاكرة المكان ورُوح التراث وأسئلة الإنسان المعاصر.

تحدِّيات واجَهها:

واجَه الغيطاني تحدِّيات عدَّة؛ منها شَقُّ طريق غير تقليدي إلى الأدب، وكتَب عن الحرب دون أن يضيع الإنسان وسط الوقائع، وجدَّد في أشكال السرد. كما حمَل على عاتقه إنقاذ المجهولين من النسيان، فكانت الكتابة عنده مقاوِمة لفقدان الذاكرة.

فكر

- هل تستطيع الأوراق الرسمية أن تقول كل شيء عن الإنسان؟ اقرأ لتكتشف أثر الوثائق والشهادات المتعارضة في بناء الحكاية.

حكايات الغريب:

• فجوة في الدفاتر

في صباح الثاني من فبراير عام ١٩٧٤، كتب رئيس العهدة بالمؤسَّسة العامة المتحدة للتوزيع والانتشار مذكِّرة عن الأسطى عبد الرحمن محمود علي. فقد خرج في السادسة من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٣ يقود سيارة نقل «فورد» موديل ١٩٥٦، محمَّلة بالصحف والكتب والمجلات لتسليمها إلى الحاج حسن السوداني، مُتعهِّد التوزيع في السويس. انقطع خبره منذ الرابع والعشرين من أكتوبر، وظلَّ مصير السيارة والحُمولة مجهولًا، فظهرت فجوة في دفاتر العهدة.

أبدى المدير دهشته من بقاء العُهدة معلَّقة كل هذه الشهور، ثم صدَر قرار مشترك بتشكيل لجنة من الأستاذ الجواهري رئيس العُهدة، وسعيد طايل من إدارة الأفراد، وشفيق نصري من قلم التوزيع. استغرقت الموظفة سنية حتى الواحدة والربع في نَسْخ القرار بعد أن قطعت عملها مكالمة طويلة، ثم انتظرت النسخ ثلاثة أيام أخرى حتى استوفت التوقيعات.

مِفتاح القراءة:

• يفتتح الكاتب بالمذكِّرة الرسمية؛ فيظهر الإنسان تدريجيًا من وراء السيارة والحمولة ودفاتر العُهدة.

حُدِّدت للمأمورية سبعة أيام. سأل طايل عن البدل ومواعيد الصرف، وقال الجواهري: إن كل شيء يجب أن يثبت بالمستند. طلب طايل الشاي، وطلب شفيق القرفة. عاد عامل البوفيه معتذرًا: غلت القرفة وندرت، ولم تعُد عهدة البوفيه تسمح بها. قال شفيق: «هاتِ شايًا إذن». وسأل، كأنَّه تذكَّر فجأة: «وأم السائق؟ هل أبلَغها أحد؟».

فتح الجواهري دفتر التكليف، وأملى بصوت لا يترك مساحة للالتباس: مراجعة مِلَف السائق، وسؤال أسرته، وتتبُّع خط سَيْر السيارة، ومُضاهاة أقوال الشهود بالسجلات.

إضاءة

• العُهدة: أموال أو أدوات تُسلَّم إلى الموظف ويُسأل عنها. المأمورية: مهمة رسمية خارج مقر العمل. تسوية العهدة: إثبات ما آل إليه ما تسلمه الموظف.

كان يريد لكل خطوة رقْمًا وتاريخًا وتوقيعًا. أما شفيق فلاحَظ أن الاسم في المذكِّرة لا يأتي إلا تابعًا للسيارة: «السائق المُكلَّف بقيادتها». وسأل نفسه، من غير أن يرفع عينيه: أيمكن أن يصبح الإنسان ملحقًا بعهدة إلى هذا الحد؟

وقبل الانصراف أعاد طايل حساب بدل السفر، وسأل عن وسيلة الانتقال ومكان الإقامة.

ابتسم المدير وقال: إن عليهم أن يعودوا بنتيجة، لا بانطباعات. سجَّل الجواهري العبارة في ذهنه كأنَّها مادة من لائحة، بينما قال شفيق: إن النتيجة قد تكون أوسع من ورقة تسوية. لم يجبه أحد؛ كانت اللجنة

يومئذ لا تزال ترى أمامها سيارة غائبة وحُمولة ناقصة، لا أمًّا تُحصي الليالي، ولا مدينةً ستمنح السائق أسماء أخرى.

رفع الجواهري عينيه عن القرار: «مهمَّتنا تصفية عهدة السيارة والبضاعة، ومعرفة الموقف الوظيفي للسائق». قال شفيق: «لكن السائق نفسه مفقود». أجابه الجواهري: «وهذا ما سنثبته إذا قام عليه دليل». وفي غمرة هذه التفاصيل الصغيرة بقي السؤال الكبير: كيف تُسوَّى عهدة السيارة والبضاعة، ومصير صاحبها مجهول؟!

• من محتويات المِلف الأزرق

ضمَّ المِلف شهادات تطعيم ضد الجُدري والدفتيريا، وشهادة حُسْن سير وسلوك وقَّعها موظفان في الأول من أغسطس ١٩٦٧، ورخصة لقيادة جميع المركبات، وشهادة بخمس سنوات من العمل في المؤسَّسة المصرية العامَّة لنقل العبوَّات الزجاجية الفارغة. كان المِلف مرتبًا ودقيقًا، لكنَّه خلا من كل ما لا تسجِّله النماذج: ما يخشاه الرجل، وما يحبُّه، وما يمكن أن يفعله إذا وجد مدينة كاملة في خطر.

إضاءة

الاسم: عبد الرحمن محمود علي، مواليد ١٩٤٤.
الأب: محمود علي أحمد. الأم: نجية.
الوظيفة: سائق. محل الإقامة: منزل ١١، العطوف. الحالة الاجتماعية: أعزب. سبب الإعفاء من التجنيد: الابن الوحيد وعائل أمه. الجزاءات: لا يوجد. آخِر مأمورية: السويس، ٢٣ أكتوبر ١٩٧٣.

• أُمٌّ تُحصي الليالي

قادَهم العنوان إلى العطوف، منزل رقم ١١. ظلُّوا قرابة ساعة يسألون: ميكانيكي يشير إلى سمكري، وسمكري يردُّهم إلى حارس شرطة، وعجوز يراجع الاسم ثم يدلُّهم على ممرٍّ ضيِّق. عبروا ماءً راكدًا، ودخلوا فِناء يشبه الحظيرة؛ اختفى طفل حين رآهم، وخرج من الداخل صوت عجوز يطلب كوب شاي.

ظهرت أم عبد الرحمن حافية، تغطِّي نصف وجهها بطرف طَرْحتها. على الدولاب صورة تواجه الداخلين: عينان واسعتان، ووجه بَيْضي، وتحتها ختم «أستوديو الأزهر». كانت الصورة نفسها التي في المِلف، لكنَّ حضورها هنا لم يكن حضور مستنَد؛ كانت عينين تراقبان ثلاثة غرباء جاءوا يسألون عن صاحب البيت.

قالت وهي تضمُّ طرف طرحتها إلى وجهها: «ماحدش قال لي حاجة يا بيه. رُحت المصالح والأقسام، وكل واحد يبعتني لواحد، وأرجع زي ما رحت». توقَّف راتبه، فكتب لها موظَّف خطابًا إلى رئيس المصلحة والمحافظ، ولم يصلها جواب. وحين مرِضت عالجها طبيب الشارع بلا أجر؛ كان يعرف أنَّها أُمُّ عبد الرحمن.

قالت إنه سندها، ولم يسبَّ أحدًا، ولم يتشاجر، ولم تطأ قدماه قِسْمًا للشرطة. وحين قبَض أوَّل راتب وضعه في يدها؛ كان يتفاءل بأن يعطيها أوَّل خيره. لم يكن يأكل وجبة كاملة، وأشارت بأصابعها إلى مقدار ما كان يكتفي به، ثم قالت: إن وَقْف الراتب ضيَّق عليها عيشها، لكنها لا تقبل صدقة: «لا... عبد الرحمن ما يعملها».

لم تكن تجيب في جمل مرتَّبة كما تُرتِّب الإجابات في محضر. تنتقل من راتبه إلى طعامه، ومن صورته إلى الطريق الذي خرج منه، ثم تعود فتسألهم إن كانوا وجدوه. وكلَّما حاول الجواهري تثبيت تاريخ، أعطَتْه

علامة من علامات البيت: يوم غسل له ثيابه، أو ليلة تأخَّر فيها قليلًا. دوَّن شفيق هذه التفاصيل، وفهِم أن ذاكرة الأمِّ لا تعمل بالتقويم؛ إنَّها تحفظ الغياب بما تركه في الأشياء.

سألها طايل: «هل كان له أصدقاء في السويس؟». هزَّت رأسها، ثم قالت: إنه لا يكثر الكلام عن نفسه، وإن عمله يأخذه من مكان إلى مكان. وسأل الجواهري: إن كان قد أرسل خطابًا، فقالت: إنها لا تقرأ، لكنَّها كانت ستعرف خَبَره ممَّن يقرأ لها. لم تتَّهم أحدًا ولم ترفع صوتها؛ كان رجاؤها البسيط أن يقولوا لها: أين ابنها؟ وأن يعود راتبه إن كان حيًّا، أو تعرف حقَّها إن ثبت موته.

سأل الجواهري عن آخر مرَّة رأَتْه فيها، قالت: إنها تتذكَّر خروجه كأنَّه حدَثَ منذ ساعة. نزل السلم ثم عاد، وقال لها: «خلِّي بالك من نفسك». مضى متمهِّلًا ونظر خلفه ثلاث مرات. ومنذ ذلك اليوم وهي تُحصي الليالي: خمسًا ومائة ليلة. لم تقُل: غاب منذ أكتوبر؛ جعلت كل ليلة وَحْدة مستقلَّة من الانتظار.

كانت تسأل مَن يقرأ لها الصحيفة عن أهل السويس: هل وجدوا ماءً؟ هل مات رجال كثيرون؟ وسمعت خبرًا عن انفجار عين ماء عذبة أثناء الحصار، فاحتفظت به إلى جوار أخبار ابنها. وحين سألها الجواهري عما إذا كان قد ابتعد مختارًا أو تعلَّق بامرأة، ردَّت بيقين: لو فعل لأخبرها. خرج الموظفون وقد تغيَّر معنى مهمَّتهم في نفوسهم، وإن لم يعترفوا بذلك.

في الخارج قالت جارة: إنها رأت عبد الرحمن يومًا ينزل السلم حاملًا أمه. وتذكر أحد أعضاء اللجنة سخرية طبيب يُدعى عبد المعطي من هيئتهم الرسمية، كأنَّ زيارة أُمٍّ مكلومة تحتاج إلى أقنعة ولاصق طبي لا إلى أذن تسمع. ومع ذلك لم يلبث طايل أن انشغل بابنة بائع العطور، واقترح شفيق سؤال رجل آخَر، بينما كان الجواهري يذكِّرهم بأن أيام المأمورية سبعة.

• الطريق إلى السويس

سبَقت رحلة السويس اتصالات وضمانات للطريق، واتَّفقوا على أن يرفعوا تقريرًا يوميًّا مدعَّمًا بالمستندات والتواريخ والأقوال. وفي اليوم التالي انطلقوا. على جانبَي الطريق بدَت بقايا إطارات محترقة، وأكياس ممزَّقة، وفردة حذاء، وزجاجات وعلب كاكاو نثرَتْها الحرب. تخيَّل شفيق عبد الرحمن يقود سيارته وسط الدخان، ويبحث عن طريق يصل به إلى المدينة.

• مدينة خرجت من الحصار

وصلت اللجنة إلى السويس بعد فَتْح الطريق وانتهاء الحصار. بدَت المدينة كإنسان خرج لتوِّه من امتحان طويل: جدران مثقوبة، ونوافذ بلا زجاج، وشوارع تحمل آثار القصف، ووجوه تعلَّمت أن تفرِّق بين أصوات المدافع. بدأ الجواهري التحقيق الرسمي، وطلب من زميلَيه تسجيل كل شهادة وتاريخ ومستند؛ فالمهمَّة لا تَنتهي بحَدْس أو حكاية.

ذهب شفيق إلى المستشفى. كان المدير قد عاش الحصار. فتح ما بقي من السجلات، ثم قال: إن القصف والحريق أضاعا صفحات، وإن أعداد الجرحى كانت تَفوق قدرة العاملين على تسجيل الأسماء. عُولج أناس بلا مستندات، وضاعت أسماء، وتغيَّرت ملامح آخَرين بفعل الإصابات والمعاناة.

وضَع شفيق الصورة أمامه. حدَّق الرجل فيها، ثم هزَّ رأسه: قد يكون مرَّ من هنا، وقد لا يكون. الصورة القديمة لا تكفي، والذاكرة في أيام الحصار حمَلت وجوهًا أكثر ممَّا تستطيع أن تحفظ. خرج شفيق إلى الطريق، وظلَّ ينظُر إلى الإطارات والأكياس وفردة الحذاء والزجاجات وعلب الكاكاو؛ أشياء بلا أصحاب، مثل سطر انقطع قبل نهايته.

فكر

- ما الذي تغيَّر في صورة عبد الرحمن: ملامحه، أم موقعه في ذاكرة الناس؟

في إدارة المرور فتَح الموظف دفتر نقطة المثلث. أثبت السجل أن السيارة رقم ٦٧٠٧٣ نقل القاهرة دخلت في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، وأن بطاقة السائق تحمل الرقم ٣٢٨٤٨، ولم يسجِّل خروجها حتى صباح الحادي والثلاثين من أكتوبر. لكن إفادة الجندي سيد أحمد -أحد أبناء المؤسَّسة- وضعت تاريخ الدخول في الثاني والعشرين من أكتوبر، وذكَرت أن الباشجاويش نادَى السائق: «يا كمال».

• السيَّارة التي لم تَعُدْ

لم يُعثَر على السيارة رقم ٦٧٠٧٣. كانت سيارات كثيرة قد احترقت أو استعملت متاريس. دلَّتهم التحرِّيَات على حطام سيارة «فورد» احترقت كابينتها وطلاؤها واختفت لوحاتها، ولم يبقَ من أجزائها إلا القليل متصلًا.

محضر فَحْص مختصَر:

- المُعايَنة: حُطام من طِراز فورد، لوحاته غير موجودة، الكابينة والطلاء محترقان. النتيجة: يتعذَّر إثبات رقم السيَّارة أو ملكيَّتها للمؤسَّسة.

عاينها فني من الورشة مقابل ثلاثة جنيهات، لكنَّه لم يستطع تحديد رَقْمها أو مواصفاتها، ولم يجزم بأنها سيَّارة المؤسَّسة. بقيت الحُمولة مجهولة المصير، وبقي الحطام احتمالًا لا دليلًا. تمسَّك طايل أفندي بالسؤال الذي يمكن إثباته: أين السيَّارة؟ أين البضاعة؟ أمَّا شفيق فبدأ يسأل سؤالًا آخَر: أين الإنسان؟ وبين السؤالين اتَّسعت المسافة التي ستقود اللجنة بعيدًا عن المأمورية التي جاءت من أجلها.

• رجُل بأسماء كثيرة

ذهب شفيق نصري إلى رجال المقاومة، وحاوَل أن يشرح لهم القوانين والعُهدة والمخازن. وما إن وصَف السائق حتَّى قال قناوي الفدائي: «إنك تتحدَّث عن الغريب». وصل الرجل مع الحاج حسن السوداني إلى قسم الأربعين؛ حيث صناديق الذخيرة والمياه ولافتة

إضاءة مكانية

- نقطة المُثلَّث مدخل مهم للسويس، أما كوبري الزراير وقسم الأربعين فارتبطا بمقاومة القوَّات التي حاولت اقتحام المدينة أثناء الحصار.

تحمل اسم أبي زيد الهلالي. لم يكُن من رجال المقاومة المعروفين، ولم يحمل سلاحًا.

في نقطة المُثلَّث عرفه الجندي سيد أحمد باسم «كمال»؛ فقد أُطلق عليه الباشجاويش هذا الاسم لأنه رأى فيه شبَهًا بابنه. وسمَّته امرأة عجوز من حي الأربعين «خلفًا» على اسم طفل فقدَتْه قبل سبعة وأربعين عامًا، ولم يكُن قد جاوَز شهره السابع. أما الفدائيون فلم يعرفوه إلا باسم «الغريب»، صاحب الحاج حسن السوداني. عرَف كل واحد أثرًا منه، لكنَّ الاسم الكامل ظلَّ في المِلف الأزرق وحده.

• شفيق أفندي يستقصي الحقيقة

دوَّى النداء بأن الدبَّابات تتَّجه إلى كوبري الزراير. بدا الغريب حائرًا لحظة، ثم سأل عن الطريق. قال قناوي: «تعرف تضرب نار؟». أجاب: «ممكن أعرف». ناولَه رشاشًا وثلاث قنابل خارقة للدروع. تأمَّل الغريب السلاح بحَذَر رجُل يلمسه للمرَّة الأولى، أعاد السؤال عن الكوبري، ثم مضى مع الرجال. قال قناوي لشفيق: «بعدها ما شفتوش».

أرشده قناوي إلى الملازم أول حسن عمار، ضابط الصاعقة الذي قاد كمينًا عند كوبري الزراير. توقَّف الضابط قبل أن يتكلَّم، كأنَّه يعيد ترتيب الدخان والأصوات. قال: إن رجلًا لم يعرف اسمه وقف بطُوله في مواجهة الدبَّابات، مكشوفًا على غير ما يتَّبعه المقاتلون من احتماء.

وبحسب شهادته، قذف الرجل قنبلة أولى، فتصاعد الدخان من الدبابة. ثم رفع ذراعه ليقذف الثانية، وانهمرت نيران العدو وغابت المنطقة كلُّها في الدخان. أكَّد الضابط ما رآه حتى تلك اللحظة، لكنَّه لم يزعم أنه رأى ما جرى بعدها. وحين عاد الرجال إلى الموضع لم يجدوا جثمانًا. آخِر ما ثبت في شهادته: ذراع مرفوعة ودخان كثيف.

• حين صنَعت المدينة أسطورتها

قال راوٍ: إن الأهالي سحبوا الغريب ليلة استشهاده ودفنوه قُرب الطريق المؤدِّي إلى شركة شل، ثم نقلوه إلى مقبرة داخل السويس، فوجدوا جسده كأنَّه أُصيب منذ لحظات. واعترض آخَر: المدفون رجُل غيره؛ فقد انفجرت قذيفة ولم تترك للغريب أثرًا. وروى ثالث أن عين ماء عذبة تفجَّرت في موضع الاستشهاد. لم تتَّفق الحكايات، لكنَّها اتَّفقت على أن المكان لم يَعُدْ عاديًّا.

قالت عجوز: إن حصانًا اسمه «سوسو» دمعت عيناه حين غاب الغريب. وروت امرأة من حي الأربعين أنه جاءها ليلًا حين جاءها المخاض، فساعدها وهي وحيدة. وذكر بائع القُلل أنه رآه يحمل الماء، بينما أكَّد عطار من حي زرب أنه كان يحفِر بئرًا في موضع آخَر. لكل شاهد موضع وزمن، ولا يجتمع الجميع على رجُل واحد.

بين الخبر والأسطورة

• لا يقرِّر الراوي صِدق هذه الحكايات، بل يسجِّل كيف منَحت الذاكرة الشعبية بطلها صفات تتجاوز المألوف.

قال بائع القُلل وهو يشير إلى ناحية الشارع: «كان يمرُّ من هنا، يأخذ ما يستطيع حمله ويوزعه على البيوت». وحين سأله طايل عن اليوم والساعة، تردَّد ثم قال: إن أيَّام الحصار تشابهت. أما العطَّار فأقسَم أنه عرفه من عينيه، لكنَّه وصف ثيابًا لا تطابق وَصْف البائع. كتب الجواهري في هامش الورقة: «اختلاف في الهيئة والزمن»، وكتب شفيق بجوارها: «اتِّفاق على النجدة».

وكان الصياد أكثر حذَرًا. لم يقل إنه عرف اسمه، بل رأى رجلًا غريبًا يسأل عن المركب وعن الممرِّ الآمِن في الماء. ولمَّا عرضوا عليه الصورة قرَّبها من عينيه، ثم قال: «يشبهه، لكن الوجوه أيَّامها كانت مُتعَبة». لم تُعجِب الإجابة طايل لأنها لا تصلُح إثباتًا، إلا أنَّها بدَت للجواهري أدق من قسم الواثقين؛ فقد حفظ الرجل الحدَّ الذي تنتهي عنده ذاكرته.

قيل: إنه كان قليل النوم، دائم الحركة: يحفِر الخنادق والآبار، وينقل العوائق لإغلاق الطرق، ويُؤذِّن أو يغنِّي المواويل، ويتبرَّع بدمه، ويتسلَّل إلى خطوط العدو ليرسم مواقع المدرَّعات. أقسَم صياد أنه خرَج في مركب رغم الألغام، وقال سائق: إنه أصلح لوريًّا معطَّلًا ثم اختفى قبل أن يشكره.

سمَّى كلُّ راوٍ الرجُل بما افتقده أو أحبَّه. المرأة العجوز سمَّته خلفًا وحنَّت إليه كابنها، والجنود رأَوْا فيه الرفيق الذي يظهر عند الحاجة، وأهل المدينة جمعوا في صورته أعمال رجال كثيرين. كلما اتسعت الروايات، ابتعدت اللجنة عن اليقين واقترب الغريب من أن يصبح صورة جماعية.

إضاءة

- الوثيقة: ما يُثبته رقم أو سِجِلٌّ.
الشهادة: ما يرويه شاهد محدَّد.
الأسطورة: ما تتداوَله الجماعة ويتجاوز الممكِن المعتاد. أضِف مثالًا من النص لكلِّ طبقة.

• من التقرير اليومي لطايل أفندي

اليوم الأول: نزلتُ اليوم مع الأستاذ الجواهري وشفيق إلى حي «العطوف» بالقاهرة. أمضينا زُهاء ساعة كاملة نَذرَع الأزقَّة ونسأل القاصيَ والدانيَ حتى دلونا على منزل الموظَّف المختفي عبد الرحمن محمود علي. دخَلْنا بيته واستمعنا إلى شهادة والدته؛ امرأة مكلومة فاض حديثها بالثناء على أخلاق ابنها، وأخبرتنا أن آخِر عهدها به كان قبل خمس عشرة ومائة ليلة، ودَمْعُها يشكي انقطاع راتبه وضِيق ذات يدها. خرجنا من عندها وقد استقرَّ في يقيننا استبعاد أي فرضيات عادية كالسفر أو الزواج المفاجئ، ولم نُضِع وقتًا؛ إذ يمَّمنا وَجْهنا فورًا شَطْر مدينة السويس.

اليوم الثاني: ما إن وطِئت أقدامنا أرض السويس حتى عقَدنا اجتماعًا عاجلًا لوضع خُطَّة التحرُّك الميداني. انطلق شفيق أفندي صَوْب المستشفى، لكنه اصطدم بظروف قاسية؛ إذ كان المبنى مهدَّمًا بفعل قصف العدو، والسجِلات مفقودة، والطاقم الطبي قد تَغيَّر بالكامل. أما أنا فقد رافقتُ الأستاذ الجواهري بعد الظهيرة إلى مقر المحافظة ومديرية الأمن لنبدأ استقصاءنا الرسمي، وهناك استغَلَّ الجواهري الفرصة وأجرى اتصاله

الأوَّل بأسرته للطمأنة.

اليوم الثالث: واصلتُ تحقيقاتي الرسمية وانكببتُ على نَبْش دفاتر المرور في «نقطة المثلث»؛ حيث دوَّنتُ في تقريري واقعة دخول سيارة النقل رقم (٦٧٠٧٣) بقيادة عبد الرحمن إلى السويس يوم ٢٢ أكتوبر، واستجوبتُ الجندي «سيد أحمد الأهل» حول ذلك. في هذه الأثناء، كان الأستاذ الجواهري يُعاين حطام السيارات المتفحِّمة في أرجاء المدينة برفقة فني معتمَد؛ أملًا في الاستدلال على سيارة عبد الرحمن، لكن جولته ذهبَتْ أدراج الرياح دون جدوى.

اليوم الرابع: بدأ الجواهري يومه بإجراء اتصاله الثاني بعائلته في القاهرة للاطمئنان والتوصية على شئونه المنزلية، بينما انشغلتُ أنا باتخاذ ترتيبات لشراء بعض الأسماك من الخليج. وعلى صعيد البحث، نجح شفيق أفندي في لقاء رجال المقاومة الفدائيين؛ وما إن عرَض عليهم أوصاف عبد الرحمن حتى عرفوه فورًا وسمَّوه «الغريب»، واستمع منهم ومن الملازم أوَّل حسن عمار إلى قصص بطولته في التَّصدِّي للدبابات بقنابل خارقة للدروع عند كوبري «الزراير» واستشهاده هناك. وفي الوقت نفسه، كان الجواهري يزور مسئولًا بالشئون الصحية، فسمع منه قصة سائق «اللوري» الذي واجَه الدبابات برأس مرفوع ودمَّر إحداها، ليُعلن الجواهري أمام الجميع بفَخْر واعتزاز: «إنه عبد الرحمن!».

اليوم الخامس: عكَفْنا اليوم على جَمْع وتدوين الروايات المتضاربة حول مصير «الغريب» وجثمانه الطاهر؛ فبينما أفادت شهادات بأنه دُفِن ثم نُقِل ولُوحِظت طراوة دمه وحفاء قدميه، جَزَمَت روايات أخرى بانفجار دانة فوقه وبزوغ عين ماء عذبة في موضع استشهاده. كما استمعنا إلى شهادة امرأة عجوز تجلس بجوار كشك الصُّحف، حكَتْ لنا عن عطفه الشديد عليها ورعايته لها، وأقسمَتْ أنها ترى عصفورين خضراوين يحومان باستمرار فوق كوبري الزراير حيث يسكن سِرُّه.

اليوم السادس: ذهبت مع شباب المدينة إلى موضع قيل إنه قبره. قرأنا الفاتحة. لم أعد أبحث عن رقم سيارة وحده؛ صِرت أسأل: ماذا بَقِي حتى تحصل أمه على حقوقها؟

تسرب الانفعال شيئًا فشيئًا إلى لُغة طايل الرسمية. لم يعُدْ مجرَّد موظَّف يحصِي العهدة؛ صار يسجِّل أسماء الشهود وأوصافهم، ويعود في المساء مُثقلًا بما سمع.

أما الجواهري فظل يرتِّب الأوراق في ثلاث حِزم: مستندات يمكِن إرفاقها، وأقوال يمكِن نسبتها إلى أصحابها، وحكايات لا يعرِف أين يضَعها. كان يرفض حذف الحكايات لأنها تكرَّرت، ويرفض اعتمادها لأنها تناقضت. وفي كل مساء يُعيد قراءة التكليف الأول، فيجد أن عباراته أضيق من المدينة التي يُحقِّق فيها.

وشفيق، الذي بدأ الرحلة أقلُّهم اهتمامًا باللوائح، صار أكثرَهم بحثًا عن صاحب الصورة. لم يُرِد صناعة بطل من غير دليل؛ أراد فقط ألَّا يؤدِّي غياب اللوحة أو السجل المُحترَق إلى محْو فعل إنسان. لذلك عاد إلى

الشهود، يجمع من التفاصيل المتفرِّقة ظلّ رجل عبر المكان ثم ابتلعه الدخان.

• ملحوظات أخيرة

قدم طايل أفندي حصيلة استقصائه: باشجاويش من قسم الأربعين، وامرأة عجوز، وبائع قلل، وعطار، وصياد سمك؛ أكَّد كل منهم أنَّه رأى الغريب، لكنهم لم يُجمِعوا على وقت واحد أو فعل واحد. كان يظهر في طرف ثم ترويه الحكايات في طرف آخر، حتى بدا كأنه يتحرك في المدينة كلها.

قال الجواهري إن إعلان استشهاد أحد أبناء المؤسسة أمر مُشرِّف، لكن اللجنة لم تعثر على قبر ثابت، ولم يُجمِع اثنان على رواية واحدة. ثم أعاد الحديث إلى السيارة والبضاعة؛ فقد قضى عمره في خدمة الحكومة، وتعلَّم ألَّا يُثبِت في تقرير إلَّا ما يقوم عليه دليل.

أما شفيق فكان يُصغِي صامتًا. راوده يقين بأن الغريب يطوف في الطرف الآخر من المدينة، فأسرع ذات صباح بين أنقاض البيوت ورائحة البحر، كأنه سيلحق به إذا أسرع قليلًا. لم يره، لكنه لم يعد قادرًا على النظر إلى الصورة بوصفها صورة موظَّف غائب فحسب.

فكر

- إذا اتفقت الشهادات على أثَر الرجل واختلفت في اسمه ومصيره، فأين تكون الحقيقة: في التفاصيل أم في الأثَر؟

• ثلاثة مواقف

تغيَّر كل عضو بطريقة مختلفة. انفتح شفيق منذ زيارة الأمِّ على ما لا تسجله الأوراق. وتحول طايل متأخرًا من موظَّف مُنشغِل بالإجراءات إلى باحث يطوف المدينة ويزور موضِع القبر. أما الجواهري فتأثَّر بما سمع، وظلَّ مع ذلك أسير السؤال المهني القديم: أين الدليل؟

بهذا بقي عبد الرحمن بين ثلاث دوائر: ملف يثبت أنه سائق اسمه عبد الرحمن محمود علي، وأم تعرف عاداته وصمته، ومدينة ترويه بأسماء شتَّى. لم تستطع دائرة واحدة أن تحتويه كاملًا.

• موضع قِيل إنه قبره

في مساء اليوم السادس، قال طايل أفندي إنه مضى مع عدد من شباب السويس إلى موضع قيل إن عبد الرحمن يرقد فيه، وإنهم وقفوا هناك وقرءوا الفاتحة. كان يتحدث بانفعال لم يعرفه زميلاه في بداية الرحلة. سأل: ماذا بقي حتى تقتنع المؤسسة بموته وتمنح أمه حقوقه؟

أصغى الأستاذ الجواهري في هدوء. لم ينكر ما صنعه الغريب، ولم تعُدِ الحكايات عنده أمرًا هيِّنًا. قال: إن استشهاد واحد من أبناء المؤسسة يُشرِّفها، ثم أعاد السؤال الذي لازمهم منذ أن فتحوا الملف الأزرق:

- ولكن ما الذي يثبت ذلك؟ أين الأدلة؟

توقف وتأمل

- لماذا أنهى الغيطاني القصة بسؤال لا بإجابة؟ وما الذي يعجز الدليل الإداري عن إثباته؟

حصاد قراءتي:

• أولًا: أفكّر

١. تتبَّع تحوُّل نظرة أعضاء اللجنة إلى عبد الرحمن منذ كان (سائقًا منقطعًا عن العمل) حتى أصبح رمزًا للبطولة. ما المواقف التي صنعت هذا التحوُّل؟

٢. بدأت مهمة اللجنة بالبحث عن السيارة والبضاعة. ما دلالة هذه البداية؟ وكيف تكشف نظرة المؤسسة إلى الإنسان؟

٣. قارِن لغة مذكرة المؤسسة بلغة الأم وشهادة قناوي. ماذا تكشف المفردات والجُمل عن موقف كل صوت؟

٤. لماذا اختار الكاتب لجنة ووثائق وشهادات مُتعدِّدة بدلًا من راوٍ مباشر يحكي ما حدث؟

مهمة ثنائية

• اختر مع زميلك شهادتين: حدِّدا ما اتفَقْتا عليه، وما اختلَفْتا فيه، وما لا تستطيعان إثباته.

• ثانيًا: أتأمَّل

١. رتِّب المحطات الآتية بحسب ورودها: زيارة أم عبد الرحمن - فحص حطام السيارة - فتح ملفه الوظيفي - شهادة حسن عمار - مذكرة المؤسسة.

٢. أكمل بطاقة المهمة

المفقود: .....

آخر مكان ثابت: .....

• ثالثًا: أناقش

١. صنِّف الأدلة في ثلاثة أعمدة: ثابت بوثيقة - مرجح بشهادة - غير مثبت أو أسطوري.

٢. ضع في الأعمدة: وقت دخول السيارة، واسم (كمال)، والوقوف أمام الدبابات، وتفجُّر عين الماء، وبقاء الجسد طريًّا.

٣. لماذا لم يقدم الكاتب حقيقة نهائية عن مصير عبد الرحمن؟ وما أثر ذلك في معنى الحكاية؟

٤. «لا تستطيع الوثائق الرسمية وحدها أن تحفظ تاريخ الشعوب». ناقش هذه الفكرة مستدِلًّا بأحداث العمل.

٥. وازِن بين موقف الجواهري الذي لا يُثبِت إلا ما يقوم عليه دليل، وموقف شفيق الذي يرى أن غياب الوثيقة لا ينفي الفعل، ثم بيِّن حدود كل موقف.

٦. البطولة الحقيقية لا تحتاج إلى شهرة أو اعتراف رسمي. ناقش العبارة في ضوء شخصية الغريب.

٧. هل أفقد تعدُّد الأسماء عبد الرحمن هويته أم منَحَه هوية أوسع؟ وضِّح رأيك بدليلين.

• رابعًا: أربط بحياتي

١. اختر شخصًا تعرفه، أو شخصية من مجتمعك المحلي، أو موقفًا متخيَّلًا لإنسان يؤدِّي واجبه في صمت، ثم اكتب أثره فيمن حوله.

٢. قد تحكم المؤسسات على الإنسان من خلال أرقام وبيانات محدودة. ما الجوانب التي لا تستطيع الملفات عادة أن تكشفها؟

٣. كيف يمكن لطلاب المدرسة أن يُسهِموا في حفظ حكايات أبطال مجتمعهم المحلي الذين لا يعرفهم الناس؟

تنبيه

• إذا كتبت عن شخص حقيقي، فاحترم خصوصيته، ولا تذكر بيانات شخصية أو واقعة لا يرغب في نشرها.

• خامسًا: أطبّق

اختر مهمَّة واحدة، واكتب من ١٢٠ إلى ١٥٠ كلمة:

١. اكتب من مذكرات شفيق أفندي في الليلة التي أدرك فيها أن البحث لم يعد عن السيارة، بل عن الإنسان.

٢. صُغ رسالة من أم عبد الرحمن إلى ابنها الغائب، مستلهِمًا ما عرفته عن شخصيتها.

٣. أعِد كتابة النهاية من وجهة نظر قناوي الفدائي أو طايل أفندي.

٤. اكتب نَصَّ إعلان إذاعي للبحث عن عبد الرحمن؛ يذكر صفاته وآخِر ظهور له، وينقل تعدُّد الأسماء دون أن يحسم مصيره.

• سادسًا: أوظِّف

تعلم

• لا تُقاس قيمة الإنسان بعدد من يعرفون اسمه، بل بما يتركه فعله من أثر.

بعد قراءة العمل، أكمل العبارات الآتية:

١. أكثر موقف أثَّر فيَّ هو: .....

٢. تغيَّرت نظرتي إلى البطولة لأن: .....

٣. السؤال الذي بقي في ذهني: .....

٤. القيمة التي سأحملها من هذه الحكاية إلى حياتي: .....

٥. أستطيع دعم رأيي بموقفَينِ من النص: نعم ☐ إلى حد ما ☐ أحتاج دعمًا ☐

عودة الرُّوح

توفيق الحكيم

عودة الرُّوح لـ «توفيق الحكيم»

نُبذة عن حياته ونشأته:

اسمه «توفيق إسماعيل الحكيم»، رائد المسرح الذهني(*) ومن رُوَّاد الأدب العربي الحديث. وُلد في الإسكندرية عام ١٨٩٨م، ونشأ في بيئة تجمَع بين التناقضات؛ فوالده قاضٍ مصري من أثرياء الفلاحين، ووالدته من أصول تركية أرستقراطية. كانت والدته تتعالى على أهله وتمنعه من الاختلاط بأقرانه من الأطفال؛ مما دفعه مبكرًا للجوء إلى عالَمه العقلي الداخلي، وجعل من القراءة والخيال نافذته الوحيدة للهروب من هذه العزلة. التحق بكلية الحقوق، ثم سافر إلى فرنسا لاستكمال دراساته العليا في القانون، لكن أضواء المسرح الفرنسي والأدب خطفت قلبه وعقله؛ ليعود إلى مصر حاملًا مشروعًا ثقافيًا ضخمًا؛ لتأسيس مسرح عربي يناقش قضايا الوجود والمجتمع، وتُوفِّي عام ١٩٩٢م.

المحطات المهمة في حياته:

• تأسيس المسرح الذهني:

ابتكر نوعًا جديدًا من المسرح تُبنى فيه الصراعات على الفِكَر والمعاني، وهو مسرح كُتب ليتجسَّد في عقول القراء أكثر من أن يُمثَّل على خشبة المسرح لضخامة أفكاره.

• التمثيل الثقافي والمناصب:

عُيِّن مندوبًا لمصر في منظمة اليونسكو بباريس عام ١٩٥٩، وعمِل مستشارًا بجريدة الأهرام، وعضوًا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب.

• التكريم الرفيع:

تُوِّجت مسيرته بأرفع الأوسمة، ومنها: «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» (١٩٦٠)، و«قلادة النيل» (١٩٧٥) كأرفع وسامٍ مصري.

(*) المسرح الذهني هو نوع من الأدب المسرحي كُتِب ليُقرَأ في الكتب ويتأمله العقل، بدلًا من تجسيده وأدائه على خشبة المسرح. يهدف هذا النوع إلى إثارة الفِكر والتأمل في القضايا الفلسفية والتجريدية، ويُعتبر الكاتب المصري توفيق الحكيم رائد هذا الفن في الأدب العربي.

التحديات التي واجهها:

- **تحدي تغيير المسار (الشغف مقابل الرغبة الأسرية):**

سافر إلى فرنسا لدراسة القانون بأمر من والده، وكان شغوفًا بدراسة الأدب والفن.

- **تحدي العزلة:**

عانى في طفولته من العزلة التي فرضتها والدته، لكنه بذكاء حوَّل هذه العزلة إلى خلوة للتأمل والإبداع وصناعة الفكر.

- **تحدي المعارك الفكرية:**

خاض معارك فكرية شرسة دفاعًا عن أفكاره أمام شخصيات وتيارات سياسية ودينية كبرى في عصره، مثل المعركة التي أثارها كتابه «عودة الوعي»، ولم يتنازل يومًا عن حريته في التفكير والنقد.

أهم الكتب والمؤلفات:

لم يكتفِ الحكيم بنوع أدبي واحد، بل أبدع في الرواية والمسرح والمقال، ومن أهم أعماله:

- **أهل الكهف:**

مسرحية ذهنية رائدة استوحاها من القرآن الكريم، تُناقش صراع الإنسان مع الزمن.

- **يوميات نائب في الأرياف:**

رواية واقعية كشفت ببراعة وسخرية عن معاناة الفلاح المصري في مواجهة البيروقراطية والجهل.

- **عودة الروح:**

دُرَّته الروائية وأيقونة الأدب الوطني (انتهى من كتابتها عام ١٩٢٧ في فرنسا، ونُشرت عام ١٩٣٣).

وصف العمل الأدبي:

صدرت للرواية طبعات تاريخية وحديثة شهيرة، أبرزها طبعات «مكتبة مصر» و«دار الشروق».

- **فكرة العمل:**

رُوح الأمة من داخل الناس البسطاء.

- **أبرز القيم التي يعالجها:**

الانتماء، الأمل، قوة الشعب، الترابط الأسري، وَحْدة المصير، الإيمان بالمستقبل.

• البيت القديم:

كان البيت قائمًا في أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة، قديم البناء، ضيِّق السلالم، تتجاور فيه الغُرف حتى تكاد الأنفاس تختلط داخلها، ولم يكن من البيوت التي يلفت شكلها النظر.

فمنذ الصباح الباكر، يبدأ البيت في الحركة كأنه كائن حي استيقظ من نومه.

تُفتح الأبواب الخشبية الثقيلة، وتعلو أصوات إعداد الشاي، وتتحرك الأقدام صعودًا وهبوطًا فوق السلم القديم، بينما تختلط روائح الطعام بدخان الفحم وضوء الصباح المُتسلِّل من النوافذ الضيِّقة.

وكان كل فرد في البيت يعيش بطريقته الخاصة، لكن الجميع ظلوا مرتبطين بذلك المكان الذي يجمعهم رغم اختلافهم.

هناك مَن ينظر إلى الحياة ببساطة شديدة: العمل، والطعام، وبعض الراحة، ثم يوم جديد يشبه اليوم السابق. وهناك مَن يشعر أن الحياة أكبر وأعمق من هذا التكرار اليومي، وأن داخل الإنسان شيئًا لا يشبع بسهولة، وكان محسن واحدًا من هؤلاء.

تأمل

• بعض البيوت لا تجمع الناس تحت سقف واحد فقط، بل تجمع قلوبهم وذكرياتهم وأحلامهم أيضًا.

لم يكن محسن شابًّا كسولًا أو فاشلًا كما قد يظنه البعض لأوَّل وهلة، لكنه كان مُختلفًا عن كثير ممَّن حوله.

كان سريع التأثُّر، كثير التفكير، يميل إلى الشرود الطويل. أحيانًا يجلس وسط الناس، لكنه يبدو بعيدًا عنهم، كأنَّ جزءًا منه يعيش في مكان آخر لا يراه أحد، وكان يشعر دائمًا أن الحياة التي يعيشها الناس كل يوم ليست كل شيء حين يسير في الشارع، لا يرى فقط الباعة والعربات والزحام، بل يرى التعب المختبئ خلف الوجوه، والقلق الذي يحاول الناس إخفاءه بالضحك والكلام العادي، وكان يحب أن يراقب القاهرة.

في النهار، تبدو له مدينة متعبة تركض بلا توقُّف، موظفون يُسرعون إلى أعمالهم، وعربات تتزاحم في الطرق، وباعة يرفعون أصواتهم من أول الصباح حتى آخِر النهار.

أما في الليل، فكانت القاهرة تتحوَّل إلى شيء آخر، يهدأ الضجيج قليلًا، وتصبح المدينة أكثر صدقًا كأنها تخلع وجهها المتعب وتكشف رُوحها الحقيقية.

وكان محسن يحب المشي ليلًا، يمشي بلا هدف واضح، فقط لأنه يشعر أن قلبه ممتلئ بأفكار لا يعرف كيف يشرحها لأحد أحيانًا، يقف طويلًا أمام النيل، ينظر إلى الماء وهو يتحرك في الظلام، فيشعر أن داخله هو الآخر يمتلئ بحركة غامضة لا يفهمها تمامًا.

فكِّر

• بعض الناس يكتفون بالعيش كما تأتيهم الحياة، بينما يظل آخرون يبحثون طَوالَ الوقت عن معنى أعمق لما يعيشونه.

لماذا يبدو الناس مُتعَبين إلى هذا الحد؟ ولماذا يعيش أكثرهم كأنهم فقدوا شيئًا لا يعرفون اسمه؟

ليست عودة الرُّوح مجرد رواية عن الثورة، ولا عن السياسة وحدها، بل هي حكاية عن شعب كامل كان يعيش طويلًا كأنه نائم، ثم بدأ يفتح عينيه ببطء ليرى نفسه والعالَم من حوله بطريقة مختلفة.

ولهذا لم يبدأ توفيق الحكيم روايته بالخُطَب الكبيرة أو الأحداث الصاخبة، بل بدأها من بيت مصري بسيط، مزدحم بالحياة والناس والأصوات والهموم الصغيرة؛ لأنه كان يعرف أن الأمم لا تستيقظ من القصور وحدها، بل من البيوت القديمة التي يعيش فيها الناس العاديون ويحلمون ويتعبون ويحبون ويخافون.

• القاهرة والناس:

وكان أكثر ما يَجذِب محسن هو الناس أنفسهم.

فالناس بالنسبة إليه لم يكونوا مجرَّد عابرين في الطريق، بل حكايات كاملة تمشي على قدمين، هذا رجل يضحك بصوت مرتفع؛ ليُخفي خوفًا داخليًا، وذاك رجلٌ يبدو قويًا، لكنَّه يحمل تعب سنوات طويلة، وتلك المرأة تمشي مسرعة وهي تحمل فوق كتفيها همَّ بيت كامل.

وكان أحيانًا يجلس في المقاهي الشعبية بالساعات، لا لشيء إلا ليستمع إلى أحاديث الناس.

هناك عامل يشكو من ضِيق الحياة، وشابٌّ يتحدث بحماس عن حُلم يريد تحقيقه، ورجل مسنٌّ يُكرِّر أن الدنيا لم تعد كما كانت، وكان محسن يشعر أن مصر كلها تشبه إنسانًا طويل الصمت، يحمل في داخله كلامًا كثيرًا لم يقله بعدُ؛ ولهذا كان يرى أن الناس -رغم بساطتهم وتعبهم- يخفون قوة كبيرة لا يعرفونها هم أنفسهم.

إضاءة

• الشعوب قد تبدو ساكنة لفترة طويلة، لكن داخلها تبقى دائمًا مشاعر وأحلام تنتظر اللحظة التي تستيقظ فيها.

• البيت في المساء:

وكان المساء أجمل أوقات البيت بعد يوم طويل من العمل والحركة، يعود الجميع واحدًا بعد الآخَر، حاملين معهم تعب النهار وأخباره الصغيرة، تبدأ الأحاديث أولًا بشكل عادي عن أسعار الطعام وأخبار الجيران وضِيق المعيشة، ثم لا تلبث أن تتحوَّل إلى جدال أو ضحك أو حكايات قديمة.

وكان البيت -رغم ضيقه- يمتلئ بدفء غريب، فالناس فيه قد يختلفون كثيرًا، وقد يرفعون أصواتهم أحيانًا، لكن أحدًا لم يشعر يومًا أنه وحيد، وكان محسن يحب تلك اللحظات رغم صخبه الظاهر. يجلس صامتًا أحيانًا يستمع إلى الجميع، فيشعر أن هذا البيت الصغير يشبه مصر نفسها.. مزدحمًا ومتعَبًا ومليئًا بالفوضى لكنه حي، وكان يرى أن الناس البسطاء -رغم شكواهم الدائمة- ما زالوا قادرين على الضحك والسخرية والحُلم، وهذه القدرة نفسها كانت -في نظره- علامة على أن الرُّوح لم تمت بعدُ.

اربط بحياتك

• قد تبدو بعض الأشياء العادية والمتكررة بسيطة جدًّا، لكن الإنسان يكتشف أحيانًا أنها كانت مصدر دفئه الحقيقي.

• سنية:

ثم ظهرت سنية وكأن الحياة -وسط ذلك الزحام والتعب والوجوه المتشابهة- قرَّرت أن تفتح نافذة يدخل منها الضوء، لم تكن سنية من الفتيات اللاتي يلفتن الأنظار بصخب أو تكلُّف، لكنها كانت تملِك حضورًا هادئًا يجعل مَن يراها يشعر براحة غامضة، وكان محسن -كلما لمحها- يشعر أن العالَم صار أخف قليلًا، لم يكن يعرف كيف حدث ذلك بالتحديد.

هل أحبَّها منذ اللحظة الأولى، أم أن قلبه كان يبحث أصلًا عن شيء جميل يتعلق به وسط تلك الحياة الثقيلة؟

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا أن وجودها صار يُغيِّر يومه كله، أن يستمع إلى صوتها أكثر مما يستمع إلى الكلمات نفسها، وينتظر مرورها كما ينتظر الناس نسمة هواء في يوم شديد الحر.

وأحيانًا كان يبالغ في أحلامه، فيَبني من نظرة عابرة عالَمًا كاملًا، ويتخيل مستقبلًا طويلًا؛ بسبب ابتسامة قصيرة.

• أيام صغيرة:

وبدأت الأيام تمتلئ بالتفاصيل الصغيرة التي لا تبدو مهمة للناس، لكنها كانت عند محسن عالَمًا كاملًا، إذا رآها في الصباح ظل سعيدًا بقية اليوم، وإذا مرت ساعات طويلة دون أن يلمحها، شعر أن شيئًا ناقصًا في الحياة. كان أحيانًا يفتعل المرور في الأماكن التي قد يراها فيها، ثم يتظاهر بالمصادفة حين يلتقيها ويعود بعد ذلك إلى البيت صامتًا، بينما يظن الجميع أنه شارد بسبب الدراسة أو التفكير، ولا يعرف أحد أن قلبه أصبح مشغولًا بشيء آخَر تمامًا.

تأمل

• الحب في بداياته لا يجعل الإنسان يرى الواقع كما هو، بل كما يتمنَّى أن يكون.

وكان أكثر ما يربكه أن سنية لم تكن تتصرَّف بطريقة واضحة، أحيانًا يشعر أنها قريبة منه، ثم تعود بعيدة وغامضة من جديد؛ فيظل الليل كله يحاول تفسير نظرة أو كلمة أو ابتسامة.

وكان هذا العذاب الجميل جزءًا من شبابه نفسه.

لكن الحياة خارج تلك المشاعر الرقيقة لم تكن هادئة دائمًا.

فالقاهرة في تلك الأيام كانت مدينة مزدحمة بالتعب.

الفقر حاضر في الشوارع، والاحتلال حاضر في النفوس، والناس يعيشون أيامهم بين القلق والصبر الطويل.

وكان الموظفون يخرجون كل صباح بوجوه مُرهَقة، كأنهم ذاهبون إلى معركة يومية لا تنتهي، والباعة يقفون تحت الشمس ساعات طويلة من أجل رزق قليل، والأمهات يحاولن إخفاء خوفهن؛ حتى لا يشعر الأبناء بثقل الحياة.

وكان محسن كلما سار في الشوارع يشعر أن وراء هذا التعب كله شيئًا أكبر من مجرد ضِيق المعيشة.

كان يشعر أن الناس يعيشون كأنهم فقدوا الإحساس الحقيقي بالحياة. يتحركون، ويعملون، ويضحكون أحيانًا، لكن أرواحهم تبدو مرهقة وصامتة.

إضاءة

• الخطر الحقيقي ليس أن يتعب الإنسان، بل أن يعتاد التعب حتى يظنه أمرًا طبيعيًا لا يمكن تغييره.

ولهذا كان يتساءل كثيرًا: هل يمكن لشعب كامل أن يعيش هكذا إلى الأبد؟

• أحاديث المساء:

وفي المساء، كانت الأحاديث في البيت والمقاهي تبدأ عادية، ثم تتحول شيئًا فشيئًا إلى كلام عن الوطن.

وقفة

• الفِكَر الكبيرة تبدأ أحيانًا من أحاديث بسيطة يظن الناس أنها لن تُغيِّر شيئًا.

في البداية كان الناس يتحدثون بحذر.

فالجميع يعرف أن الاحتلال موجود، والجميع يشعر بالظلم، لكن كثيرين تعودوا الصمت الطويل. ومع ذلك، كانت هناك كلمات بدأت تتكرر أكثر من قبل: الحرية، والكرامة، ومستقبل مصر.

وكان بعض الرجال يجلسون في المقاهي يتناقشون ساعات طويلة.

واحد يقول: إن الأمور لن تتغير أبدًا، وآخر يرد بأن الشعوب لا تظل نائمة طول عمرها.

وكان محسن يستمع إلى هذه الأحاديث بشغف.

لقد شعر أن شيئًا خفيًّا يتحرك تحت سطح الحياة اليومية الهادئة.

شيء يشبه الوعي البطيء الذي يبدأ أولًا داخل القلوب قبل أن يظهر في الشوارع.

• سر العنوان.. متى تعود الرُّوح؟

في وسط هذا التشتُّت، يُقدِّم توفيق الحكيم حوارًا عبقريًّا بين عالِم آثار فرنسي ومفتش إنجليزي يكشف فيه سر عنوان الرواية. يتعجب الإنجليزي من خضوع المصريين واستسلامهم للاحتلال والفقر، فيرد الفرنسي موضحًا أن هذا الشعب يشبه أجداده الفراعنة؛ قد يبدو كتمثال حجري ساكن أو جسد بلا حراك، لكنه لا يموت. إنه فقط جسد مجتمع ومحفوظ، ينتظر «عودة الرُّوح» إليه. ومتى وُجِدت الشرارة أو الزعيم الذي يجمع أشلاءهم ويُوحِّد قلوبهم، دبَّت فيهم الحياة وتحوَّلوا إلى قوة كاسحة لا يمكن لأي إمبراطورية إيقافها.

• سعد زغلول:

ثم بدأ اسم سعد زغلول ينتشر في كل مكان، في البيوت وفي المقاهي وفي الشوارع حتى بين الناس الذين لم يكونوا يهتمون كثيرًا بالسياسة.

ولم يكن السبب مجرد كونه زعيمًا سياسيًّا، بل لأن الناس شعروا أنه يشبههم، رأوا فيه رجلًا يتكلَّم بلغتهم، ويشعر بما يشعرون به، ولا يخاف أن يقول ما يخافون هم من قوله.

وكان محسن يراقب هذا التغيُّر بدهشة.

لقد رأى كيف يمكن لاسم واحد أن يوقظ الحماس في القلوب، وكيف يمكن لشخص أن يجعل شعبًا كاملًا يشعر أن له صوتًا أخيرًا.

وكانت القاهرة تتغيَّر ببطء، في الوجوه شيء جديد، وفي الأحاديث جُرْأة لم تكن موجودة من قبلُ، وفي القلوب إحساس خفيٌّ بأن الأيام القادمة لن تشبه الأيام الماضية.

تعلَّم

• حين يشعر الناس أن هناك مَن يُعبِّر عنهم بصدق، يبدأ الخوف في التراجع شيئًا فشيئًا.

• ما قبل الانفجار:

وكانت المدينة كلها تبدو كأنها تَحبِس أنفاسها.

الناس يذهبون إلى أعمالهم كعادتهم، والشوارع تمتلئ بالعربات، والباعة يرفعون أصواتهم، لكن شيئًا خفيًّا كان يتحرك تحت هذا المشهد المعتاد.

صار الناس يتابعون الأخبار بلهفة، ويتبادلون الهمسات في المقاهي والطرقات، ويشعرون أن الأيام القادمة تحمل أمرًا كبيرًا، وكان محسن يلاحظ ذلك في الوجوه، الرجل الذي اعتاد الشكوى بصوت منخفض صار يتحدث بغضب أوضح، والشاب الذي كان يسخر من كل شيء بدأ يُصغي باهتمام، حتى النساء اللواتي كنَّ يبتعدن عن هذه الأحاديث أصبحن يسألن:

وماذا سيحدث بعد ذلك؟

لقد بدأت مصر تستيقظ ببطء.

ولم يكن هذا الاستيقاظ صاخبًا في بدايته، بل كان يشبه إنسانًا يفتح عينيه بعد نوم طويل، ويحاول أن يفهم أين هو، وماذا حدث له.

• خبر النفي:

ثم جاء الخبر..

انتشر أولًا همسًا، ثم تحوَّل في ساعات قليلة إلى حديث القاهرة كلها: سعد زغلول نُفِي.

وشعر الناس كأن شيئًا انكسر داخلهم فجأةً، حتى الذين لم يفهموا كل تفاصيل السياسة شعروا أن ظلمًا كبيرًا وقع، وأن الأمر لم يعد بعيدًا عن حياتهم كما كانوا يظنون.

فكِّر

• ما الذي يجعل الناس يتحملون الظلم سنوات طويلة، ثم يقررون فجأة أنهم لم يعودوا قادرين على الصمت؟

في المقاهي، ارتفعت الأصوات. وفي الشوارع، تجمَّع الناس يتناقشون بانفعال. وفي البيوت، بدأ القلق يمتزج بالغضب.

وكان محسن يسير بين الناس كأنه يرى القاهرة لأول مرة، لقد اختفى ذلك الاستسلام القديم الذي اعتاد رؤيته في الوجوه، وظهر مكانه شيء آخر: الكرامة.

• الشوارع التي تغيَّرت:

وفجأةً خرجت القاهرة من هدوئها المعتاد.. الشوارع التي كانت تمتلئ بالناس الصامتين صارت تضِج بالهُتافات، والطلاب خرجوا من مدارسهم، والعمال تركوا أعمالهم، وامتلأت الطرقات بموجات بشرية تتحرك كأن المدينة كلها تسير في اتجاه واحد.

إضاءة

• حين يشعر الإنسان أنه ليس وحده، يصبح أكثر شجاعة مما كان يتخيَّل.

وكان محسن وسط ذلك كله يشعر بدهشة عميقة.. لقد كان يرى لأول مرة كيف يمكن للناس العاديِّين أن يتحوَّلوا إلى قوة عظيمة حين يجمعهم حُلْم واحد.

الرجل البسيط الذي كان يُفكِّر فقط في لقمة عيشه صار يَهتِف للوطن، والشاب الخجول صار يسير وسط الجموع بلا خوف، والنساء اللواتي اعتدن المراقبة من خلف النوافذ بدأن يشاركن بالدعاء والمساندة والهُتاف، حتى القاهرة نفسها بدت مختلفة، كأن المدينة التي ظلت سنوات طويلة مُتعَبة وصامتة، قرَّرت أخيرًا أن ترفع رأسها.

• محسن يكتشف نفسه:

تعلَّم

• الإنسان يكتشف جزءًا جديدًا من نفسه حين يشعر أنه ينتمي إلى قضية أكبر من مصالحه الخاصة.

وكان أكثر ما أدهش محسن أنه هو نفسه بدأ يتغير، ذلك الشاب الحالم الذي كان يعيش داخل أفكاره الخاصة، شعر فجأة أنه جزء من شيء أكبر من أحلامه الفردية الصغيرة، لم يَعُد يُفكِّر فقط في الحب أو المستقبل الشخصي، بل صار يشعر أن مصيره مرتبط بمصير وطن كامل.

وحين سار وسط المظاهرات، شعر للمرة الأولى أن قلبه يخفق بنفس الإيقاع الذي تخفق به قلوب آلاف الناس حوله، وكان هذا الإحساس جديدًا عليه، إحساس أن الإنسان يمكن أن يذوب داخل جماعة كبيرة دون أن يفقد نفسه، بل ربما يكتشفها للمرة الأولى.

لقد فَهِم أخيرًا أن الوطن ليس مجرد مكان يعيش فيه الإنسان، بل شعور يجعله يرى نفسه بطريقة مختلفة.

• البيت بعد الثورة:

اربط بحياتك

• هناك لحظات في حياة الشعوب تجعل الناس يشعرون فجأة أنهم أقرب إلى بعضهم من أي وقت مضى.

ولم يبقَ البيت القديم كما كان، صحيح أن الغرف نفسها لم تتغيَّر، والسُّلَّم الخشبي ما زال يئِنُّ تحت الأقدام، ورائحة الطعام ما زالت تملأ المكان وقت الغداء، لكن شيئًا جديدًا دخل القلوب.

صار الحديث عن الوطن جزءًا من الحياة اليومية.

حتى الذين لم يكونوا يهتمون كثيرًا بالسياسة أصبحوا يتابعون الأخبار، ويناقشون ما يحدث، ويشعرون أنهم معنيون به، وكانت الوجوه نفسها تبدو مختلفة فيها قلق، نعم، لكن فيها أيضًا أمل لم يكن موجودًا من قبلُ. وأدرك محسن أن الأحداث الكبرى لا تُغيِّر الشوارع وحدها، بل تُغيِّر البيوت والناس والطريقة التي ينظرون بها إلى الحياة.

• سنية من جديد:

تعلَّم

• حين يشعر الناس أنهم مرتبطون ببعضهم، تتحوَّل الجماعة من مجرد أفراد متجاورين إلى وطن حي.

وفي وسط تلك الأيام المليئة بالهُتاف والقلق والأخبار المتلاحقة، بقِيَت سنية حاضرة في قلب محسن بطريقة مختلفة، لكنه لم يعد يراها كما كان يراها في البداية في الماضي، كانت بالنسبة إليه حُلْمًا جميلًا يهرُب إليه من تعب الحياة وغموضها. أما الآن، فقد صار يشعر أن حبَّه لها جزء من إحساس أكبر بالحياة نفسها، كان يرى في وجهها الهادئ صورة لمصر التي يحلم بها: مصر الجميلة رغم التعب، والهادئة رغم الألم، والقادرة على الابتسام حتى في أصعب الأوقات.

ولهذا لم يعد حبه مجرد انشغال عاطفي صغير، بل تحوَّل إلى شيء أعمق، صار يشعر أن الإنسان حين يحب بصدق، يصبح أكثر قدرة على فَهْم معنى الوطن والانتماء والكرامة.

• الخوف الذي تراجع:

في البداية، كان الخوف حاضرًا في كل مكان؛ الجنود في الشوارع، وصوت إطلاق النار أحيانًا، وحكايات الاعتقالات التي تنتقل بين الناس بسرعة. وكانت الأمهات ينتظرن أبناءهن بقلق كلما خرجوا إلى المظاهرات، بينما يحاول الآباء أن يبدوا أكثر تماسُكًا مما يشعرون به في الداخل.

لكن الغريب أن الخوف بدأ يتراجع شيئًا فشيئًا، ليس لأن الخطر اختفى، بل لأن الناس اكتشفوا أن هناك شيئًا أكبر من خوفهم. لقد شعروا أن كرامتهم أهم من صمتهم الطويل، وأن الوطن لا يمكن أن يبقى حيًّا إذا ظل أبناؤه خائفين دائمًا.

وكان محسن يلاحظ ذلك بوضوح، لقد رأى رجالًا بسطاء كانوا يخفضِون أصواتهم دائمًا، فإذا بهم يتحدثون الآن بجُرأة لم يعرفها فيهم من قبلُ، ورأى شبابًا لم يهتموا يومًا إلا بحياتهم الخاصة، فإذا بهم يسيرون في الشوارع وهم يهتفون لمصر، وكأنهم يدافعون عن شيء يسكن داخلهم هم أنفسهم.

• الناس الذين استيقظوا:

وكان أعظم ما حدث في تلك الأيام أن الناس اكتشفوا قوتهم الحقيقية. لقد عاش كثير منهم سنوات طويلة وهم يظنون أنهم مجرد أفراد متفرقين؛ عامل يبحث عن رزقه، وموظف يريد أن ينتهي يومه بسلام، وطالب يُفكِّر في مستقبله، وأم تخشى على بيتها وأبنائها. لكن الثورة جعلتهم يشعرون أنهم شيء أكبر من ذلك كله، أنهم شعب.

وهذا الاكتشاف وحده غيَّر كل شيء؛ الرجل الذي كان يظن نفسه ضعيفًا شعر بالقوة حين سار وسط الآلاف، والخائف الذي اعتاد الصمت وجد نفسه يهتِف دون أن يعرف من أين جاءت الشجاعة، حتى النساء اللواتي كنَّ يكتفين بالمراقبة من بعيد أصبحن جزءًا من المشهد بالدعاء والمساندة والقلق والفخر في الوقت نفسه، وكانت القاهرة كلها تبدو كأنها خرجت فجأةً من نوم طويل.

• البيت الذي يشبه مصر:

وكان محسن كلما عاد إلى البيت في المساء شعر أنه ينظر إلى صورة صغيرة من الوطن كله، فالبيت ما زال مزدحمًا كما كان دائمًا، وفيه الضحك والخلاف والتعب نفسه، لكن شيئًا جديدًا ظهر داخله.. الإحساس بأن الجميع يعيشون لحظة لن تتكرر، حتى الأحاديث اليومية العادية أصبحت مختلفة، حديث الطعام والأسعار يختلط بالكلام عن الوطن، والقلق على المستقبل يمتزج بالأمل في التغيير، وكانت الوجوه تبدو أكثر حياة رغم التعب. لقد أدرك الناس أخيرًا أنهم ليسوا مجرد أفراد يعيش كل واحد منهم وحده، بل أرواح مرتبطة ببعضها بطريقة خفية، وهذا بالضبط ما أراد توفيق الحكيم أن يقوله.

فعودة الرُّوح لم تكن عودة شخص واحد، بل عودة الإحساس الجماعي بالحياة والانتماء والقدرة على التغيير.

• ما الذي أعاد الرُّوح؟

وفي النهاية، لا يُقدِّم توفيق الحكيم إجابة مباشرة، لكنه يجعل القارئ يشعر بها بوضوح.

وقفة

• قد تمر الشعوب بفترات ضعف طويلة، لكن الروح الحقيقية تَبقى كامنة فيها، تنتظر مَن يوقظها.

فالذي أعاد الروح لم يكن خطبة واحدة، ولا زعيمًا واحدًا، ولا حدثًا واحدًا فقط، بل كان اجتماع أشياء كثيرة: الأمل، والحب، والكرامة، وشعور الناس أنهم ليسوا وحدهم.

لقد كانت مصر -قبل ذلك- كإنسان يعيش بلا وعي كامل بنفسه. يتحرك ويعمل ويتعب، لكنه لا يدرك قوته الحقيقية.

ثم جاءت اللحظة التي نظر فيها الناس إلى بعضهم، فاكتشفوا أنهم قادرون على التغيير إذا تحركوا معًا.

وهذا هو المعنى الأعمق للرواية.

فعودة الرُّوح ليست عودة فرد، بل عودة شعب كامل إلى الإحساس بنفسه.

• النهاية التي بَقِيت في القلوب:

ومرَّت الأيام، وبقيت الثورة في ذاكرة الناس، لكن الأهم أن شيئًا جديدًا بَقِي داخلهم هم أنفسهم.

شيء جعلهم يرون الحياة بطريقة مختلفة.

فقد أدركوا أن الشعب الذي يظنه البعض ضعيفًا قد يتحوَّل إذا استيقظ إلى قوة لا يستطيع أحد تجاهلها.

وأدرك محسن أن الحياة ليست مجرد أحلام فردية صغيرة، بل علاقة عميقة بين الإنسان ووطنه والناس الذين يعيش بينهم.

أما البيت القديم، فقد ظل كما هو مزدحمًا، صاخبًا، مُتعَبًا أحيانًا، لكنَّه حيٌّ.

وكأنَّه صورة لمصر نفسها.

ولهذا بقيت «عودة الروح» واحدة من أهم الروايات العربية؛ لأنها لم تتحدث فقط عن ثورة ١٩١٩، بل عن اللحظة التي اكتشف فيها شعب كامل أن له روحًا قادرة على النهوض من جديد.

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكر

كيف تغيَّرت نظرة محسن إلى نفسه وإلى الناس مع تطور الأحداث في الرواية؟

تتبَّع كيف انتقل إحساس المصريين من الصمت والخوف إلى الشعور بالقوة والانتماء الجماعي.

• ثانيًا: أتأمل

لماذا قد تعيش الشعوب فترات طويلة من الضعف أو الصمت رغم أن داخلها قدرة كبيرة على التغيير؟

هل يمكن للحب والأمل أن يكونا قوة تساعد الإنسان على التمسك بوطنه ومواجهة الخوف؟

• ثالثًا: أناقش

هل كانت ثورة الناس في الرواية نتيجة حدث واحد فقط، أم نتيجة مشاعر وأفكار تراكمت طويلًا داخلهم؟ وضِّح رأيك.

في رأيك، لماذا اختار توفيق الحكيم بيتًا وأسرة بسيطة ليُعبِّر من خلالهما عن مصر كلها؟

• رابعًا: أربط بحياتي

هل مررتَ بموقف شعرت فيه بقوة الجماعة أو التعاون، وأن وجود الناس حولك جعلك أكثر شجاعة أو طمأنينة؟

كيف يمكن للإنسان أن يحافظ على الأمل والانتماء حتى في الأوقات التي يشعر فيها بالتعب أو الإحباط؟

• خامسًا: أطبق

تخيَّل أنك تعيش في مصر وقت ثورة ١٩١٩، وتشاهد الناس لأول مرة يشعرون أنهم قادرون على تغيير واقعهم.. اكتب في ثلاثة أو أربعة أسطر تصف فيها مشاعرك، وما الذي يمكن أن يدفعك للمشاركة أو مساندة مَن حولك؟

• سادسًا: أوظف

«عودة الروح» في ضوء تأمُّلك في عنوان الرواية، فسِّر متى تعود الروح للأمة، مدلِّلًا بما ورد في الرواية.

كفاح طيبة

نجيب محفوظ

كفاح طِيبة

ومَسيرة عبقري الرواية نجيب محفوظ

نبذة عن حياته ونشأته:

اسمه: نجيب محفوظ، الروائي المِصري العالمي، وأوَّل أديب عربي يحصل على جائزة نوبل في الأدب، وُلِد في حيّ الجمالية بالقاهرة عام ١٩١١، ونشأ في أحضان الحارة المِصرية، التي جعل منها عالَمًا أدبيًّا زاخِرًا بالسكان، وهو ما جعل رواياتِه لا تكتفي بحكْي القصص، بل تغوص في الأسئلة العميقة عن الوجود، والعدالة، والمصير الإنساني، استطاع محفوظ بعبقريته أن ينقُل الأدب العربي من المحلية إلى العالَمية، ليُصبِح رمزًا للفِكْر والانضباط والإبداع.

المحطَّات المُهمَّة في حياته:

مَسيرة نجيب محفوظ هي مدرسة في (صناعة النجاح) بذكاء وانضباط، وأهمُّ محطاتها:

- **قوَّة النظام (الكاتب الموظَّف):**

أثبت أن النجاح لا يحتاج (تفرُّغًا)، بل (تنظيمًا)؛ فقد كان يكتب يوميًّا في ساعات مُحدَّدة رغم عمَلِه ككادر وظيفي؛ مما يُعلِّم الطالب أن إدارة الوقت هي مِفتاح التميز.

- **جائزة نوبل (١٩٨٨):**

أهمُّ محطة في تاريخ الأدب العربي الحديث؛ حيث استطاع بإبداعه أن يصِلَ باللغة العربية إلى العالَمية، ليُصبِح أول أديب عربي يحصل على هذا التكريم الرفيع.

- **المرونة والتطور:**

بدأ بكتابة القصص التاريخية، ثم انتقل للواقعية، ثم الرمزية؛ لم يتوقف عند أسلوب واحد، بل كان في حالة تطوير دائم لذَاتِه وأدواته مع كل مرحلة عُمرية.

التحديات التي واجَهها:

• تحدّي الإصرار (الكتابة بعد الإصابة):

بعد تعرُّضِه لمُحاوَلة اغتيال بالطعن في العُنق في ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، أصابت الأعصاب المتصلة بيده اليُمنى، لم يستسلم للواقع، بل واجَهَ التحدي، وبدأ يتدرَّب بصبر ليعُود للكتابة مُجدَّدًا، وهو درسٌ في عزيمة الأبطال.

إضاءة

• ليس أخطر ما يُواجِه الإنسان أن يُظلَم .. بل أن يظلّ أسيرًا لفكرة واحدة عن نفسِه لا يراجعها.

• تحدّي الواقع والصمود:

عاش لسنوات طويلة ككاتب يكافح من أجل إيصال صوته دون أن يتخلى عن مبادئه أو ينجرف وراء الشهرة السريعة، مفضِّلًا القيمة الفنية على أي مكسب مادي.

• تحدّي الوقت والحقيقة:

واجَه في حياته (كما في رواياته) صراعَ الإنسان مع الزمن؛ لكنَّه انتصر بالعمل الخالد الذي يظلُّ حيًّا بعد رحيل صاحبه؛ ليعلِّم الشباب أن الأثر الحقيقي هو ما نتركه من عِلْم وفنٍّ.

أهمُّ الكتب والمؤلَّفات:

قدَّم نجيب محفوظ أعمالًا خالدة كـ(الحرافيش)، و(الثُّلاثية)، و(كفاح طِيبة).

• مَلحَمة الحرافيش:

وهي رواية تقع في عشر حكايات مُتعاقِبة، تمتدُّ قرنَين من عُمر أسرة واحدة في الحارة، تَحكِي صراع الإنسان مع الزمن والعدالة، وتُعَدُّ من أعظم ما كُتِب في الأدب الرمزي.

• الثُّلاثية (بين القصرين، قصر الشوق، السُّكرية):

أضخم رواية أجيال في الأدب العربي، رصدتْ تحوُّلات المجتمَع المِصري وصراع القِيَم بين ثلاثة أجيال متتالية.

• كِفاح طِيبة:

وصف العمل الأدبي:

تتكون الرواية من فصول مُتصِلة بلا عناوين فرعية فى سرد متدفِّق، تتناول مُقاوَمة الشعب بقيادة (سقنن رع)، وتنتهي بانتصار ابنه (أحمس) وطرد الهكسوس.

صدرَت الرواية في عام ١٩٤٤، وتُعَدُّ من أبرز رواياته التاريخية.

• فكرة العمل:

حين يَفقِد الوطن حريَّته، قد يحتاج استردادُها إلى أكثر من عُمرٍ واحد؛ لكن ما يبدؤه جيلٌ بإخلاص يستطيع جيلٌ آخَر أن يتمَّه.

• القيمة الأساسية:

الوفاء للوطن.

• تمهيد

لم يبدأ محفوظ رحلته الروائية من الحارة القاهرية التي اشتهر بها وحدَها؛ فقدْ شَغَفَه التاريخ المِصري القديم في بداياته، ووجد فيه مادَّة يستطيع من خلالها أن يتحدَّث عن الإنسان والوطن والسُّلْطة والحرية، وكانت (كفاح طِيبة) من أبرز روايات هذه المرحلة، لكن محفوظ لا يقدِّم التاريخ هنا كما يقدِّمه كتاب التاريخ؛ فلا يكتفي بأسماء الملوك والمعارك، وإنما يعيد الحياة إلى البشر الذين يقِفُون وراء الأحداث: مِلكٌ يغضب لكرامة وطنه، وأمٌّ تفقِد أبناءها ولا تفقِد إيمانها، وشبابٌ يرثون عن آبائهم حُلمًا لم يتحقَّق، وشعبٌ يكتشف أن الحرية قد تتأخَّر، لكنها لا تُوهَب لمن ينتظرها.

قبل أن تقرأ

• أيُّهما أخطر على أمَّة فقدت حريتها: قوَّة عدوِّها، أمْ أن يعتاد أبناؤها وجودَه حتى يُصبِح الاحتلال أمرًا عاديًا؟

ولهذا فـ(كفاح طيبة) ليست حكاية معركة واحدة، وإنما حكاية وطَن يتعلَّم كيف يستردُّ نفسه.

• وطنٌ جريح ... وطِيبة لا تُنسَى

لم تكُنْ مِصرُ يومئذٍ مِصرَ التي عرَفتَها في عصور قوَّتها ووَحدتها؛ في الشمال استقرَّ الهكسوس، وبسطوا سلطانهم على البلاد، واتَّخَذوا لهم مَلِكًا وجيشًا وحُكمًا، أما في الجنوب، فبقيت طِيبة تَحمِل شيئًا من كبرياء مِصر القديم؛ مدينة تَعرِف أنها خاضعة، لكنها لم تنسَ تمامًا أنها كانت يومًا حُرَّة.

تأمَّل

• النيل واحد والأرض واحدة، لكن الوطن كان منقسمًا.
كيف يَزيد هذا التناقض إحساسَ (سقنن رع) بمرارة الواقع؟

وكان يتربع على عرش طِيبة (سقنن رع) ذلك الرجُل الذي لم لم يقوَ على النظر إلى هذا الواقع بقلب ساكن كان مَلِكًا حقًّا، ولكن أي سيادة تكتمل لرجُل يعرف أن فوق أرض بلاده سلطانًا آخَر؟!...، كان التاج على رأسه، غير أن في التاج شوكةً لا يراها أحدٌ، وكانت طِيبة تناديه ملِكًا، لكن الشمال البعيد يذكِّره كل يوم بأن مُلْكه ناقصٌ، وأن مِصر التي ورِثَها عن آبائه ليست كلُّها له.

• حين تُصبِح الكرامة سؤالًا

ولعل الإنسان يستطيع أن يَصبِر على ضِيق العيش، ولكنه يجِد الصبر أصعب حين يتعلق الأمر بكرامته، وهكذا كان (سقنن رع) يَنظُر إلى النِّيل، فيراه يجري من الجنوب إلى الشمال غير عابئ بالحدود التي صنَعَها الغُزاة، الماء مِصري هنا وهناك، والأرض واحدة، والسماء واحدة، فلماذا يكون على أرض واحدة سيِّدانِ؟

لم يكن السؤال جديدًا في نفسه، ولكنه كان يَكبُر، وكان مَن حوله يَعرِفون أن المَلِك لا يرضى بما آلت إليه البلاد، بعضهم يرى الحكمة في التريُّث، وبعضهم يخشى قوَّة الهكسوس، وبعضهم يعرف أن الحرب إذا اشتعلتْ فلن تفرِّق بين قصر وبيت، فالعدو قويٌّ، وجيشه مُدرَّب، وله من أسباب الحرب ما جعله يفرِض سلطانه زمنًا طويلًا.

• رفْض ينمو في صمْت

اربط

• رفْض الواقع خطوة أولى، لكن ما الذي يُحوِّل الرفض إلى قدرة حقيقية على التغيير؟

لكنَّ شيئًا آخَر كان ينمو في طِيبة في صمْت: رفْض الخضوع، ولم يكن (سقنن رع) متهوِّرًا لا يَعرِف ميزان القوَّة، كان يُدرِك ما يَملِكه عدوُّه، ويَعرِف ما قد تخسره طِيبة إن دخلتْ حربًا لم تستعدَّ لها، غير أن حساب القوَّة وحدَه لم يكن كافيًا؛ لأن وراءه حسابًا آخَرَ لا يُقاس بعدد الجنود والسلاح: كم يستطيع شعبٌ أن يعيش وهو يشعر أن أرْضَه ليست له كاملة؟

ثم جاء ما جعل الصراع المُستتِر يقترب من لحظة الانفجار، كانت العَلاقة بين طِيبة وسُلْطة الهكسوس علاقةً ظاهِرُها الهدوء وباطِنُها الإذلال، فالمُنتصِر لا يكتفي دائمًا بأن يَملِك الأرض؛ إنه يريد من المهزوم أن يَعترِف في كل لحظة بأنه مهزوم.

• العرش أم الوطن؟

تأمَّل الشخصية

• كيف تكشف (تتي شيري) أن القوة قد تظهر في الثبات وحِفْظ الهدف، لا في حَمْل السلاح وحده؟

وهنا كان الامتحان الحقيقي لـ(سقنن رع)؛ كان يستطيع أن يحافِظ على عرْشِه إذا رضِيَ بحدود القوَّة المسموح له بها، وأن يعيش ملِكًا في طِيبة ما دام لا يُفكِّر في أن تكون مِصر كلها حرَّة، وربما استطاع أن يُقنِع نفْسَه بأنه يحمِي شعْبَه من حرب قاسية، ولكن ماذا يبقى من المُلْك إذا صار العرش ثمنًا للصمت؟

ولم تكن القضية قضية عرش شخصي؛ فقد كان وراء (سقنن رع) بيت كامِل يتنفَّس هذا الشعور، وفي مقدِّمة هذا البيت امرأة ستُثبِت الأيام أن دورها لا يقِلُّ شأنًا عن دور الرجال الذين حَمَلوا السيوف؛ الملكة (تتي شيري)، كانت ترى ما يراه المَلِك، ولكن بعين الأم أيضًا، والحرب التي تبدو للقائد جنودًا وخططًا وميادين، تراها الأمُّ وجوهَ أبنائها.

• بيتٌ يحمِل حُلم التحرير

ومع ذلك، لم تكن الأمومة عندها بابًا إلى الاستسلام، كانت تَعرِف أن أبناءها قد يدفعون الثمن، ولكنها تعرف كذلك أن أجيالًا كاملة ستدفع ثمنًا أكبر إذا تعلَّمتْ أن الخضوع هو الطريق الأسلم إلى الحياة.

وفي القصر، كان الأبناء يسمعون حديث الوطن قبل أن يسمعوا صليل السيوف، كانت مِصر بالنسبة إليهم أكثر من أرض يعيشون فوقها؛ كانت ميراثًا ينبغي أن يعود إلى أصحابه، وهنا تبدأ الفكرة الكبرى في الرواية بهدوء: التحرير لا يُولَد يوم المعركة، وإنما يُولَد قبلها في النفوس.

قد تمرُّ سنوات قبل أن يتحوَّل الإيمان إلى نصر، وقد يموت الذين أشعلوا الشرارة الأولى قبل أن يرَوا ضَوء النهاية، ولكن الفكرة التي تجِد مَن يحمِلها لا تموت بموت صاحبها.

• قرارٌ لا يَعرِف صاحبه نهايته

فكِّر

- لماذا تكون بعض القرارات أصعب حين لا يَعرِف صاحبها نتائجها مسبقًا؟

اشتدَّ التوتر، ولم يَعُدْ مُمكِنًا أن تستمرَّ طِيبة بين كرامة تتطلَّع إليها وواقع يفرض عليها الخضوع، كان أمام (سقنن رع) طريقان: سلام يضمن له البقاء على عرْشِه ولكنه سلام يقوم على قبول السيادة الأجنبية، أو مُقاوَمة لا يعرف أحد أين تنتهي.

ولم يكن الاختيار سهلًا، فالقرارات الكبرى تبدو واضحة بعد أن نعرف نتائجها، أما أصحابُها حين يتخذونها فلا يعرفون المستقبل، (سقنن رع) لم يكن يعرف ما سيكتبه التاريخ عنه، كان رجلًا يقِفُ أمام لحظته وحدَها، ويجب أن يقرِّر، واختار ألَّا يجعل أمْنَه الشخصي أثمنَ من كرامة البلاد.

• من الهمس إلى المُواجَهة

ومنذ تلك اللحظة لم تَعُدِ المسألة خلافًا بين حاكِمَين، بل تحوَّلتْ إلى بداية كفاح طويل، تحرَّك الرجال، واستعدَّتْ طِيبة، وصارت الكلمات التي كانت تُقال همسًا إرادة مُعلَنة، ومن خلْف الجنود كانت البيوت تَعرِف أن الحرب إذا بدأتْ فلن يكون أحد بعيدًا عن ثمنها.

وحين بدأ القتال لم يَعُدْ في الإمكان العودة إلى الكلمات، صار على الفكرة أن تختبر نفسها أمام السيوف والعجلات والرجال، وكان (سقنن رع) في مُقدِّمة مَن يواجهون الخطر، لا يطلب من جنوده ما يتردَّد هو في فعله، ولعلَّ هذه الصورة هي التي أبقت أثَرَه بعد سقوطه؛ فالناس قد ينسَون أمرًا أصدره ملِك، لكنهم لا ينسَون قائدًا رأوه يشاركهم المصير نفسه. وحين عاد بعض المقاتلين يحمِلون خبر موته، كان الحزن شديدًا، غير أن أحدًا لم يَعُدْ قادرًا على القول: إن الحرية حُلمٌ لا يستحقُّ الثمن. لقد أعطى سقوطه للحُلم اسمًا ووجهًا وذكرى.

• حين يدخل الخوف البيوت

ولم يكن إعلان المُواجَهة يعني أن الخوف قد غاب عن القصر أو عن البيوت.

كان الرجال يتهيأون لما ينتظرهم، وكانت النساء يُخفِينَ قلقهنَّ خلْف كلمات التشجيع. وفي تلك الساعات التي تسبق الحرب يصبح لكل شيء طعمٌ مختلِفٌ: وداعٌ قصير قد يكون الأخير، ونصيحة عابِرة قد تبقى في الذاكرة عمرًا كاملًا، ونظرةٌ إلى البيت تجعل صاحبه يُدرِك للمرة الأولى مقدار ما يَخشَى فقْدَه.

تأمَّل

- ما الذي يجعل القائد جديرًا بثقة رجاله في اللحظات التي يكون فيها الخطر مشتركًا بينهم؟

وكان (سقنن رع) يعرف ذلك كله؛ يعرف أن الذين سيخرجون معه ليسوا أرقامًا في جيش، بل آباء وأبناء لهم من ينتظرهم؛ لذلك لم تكن مسئوليته أن يكون شجاعًا فحسب، وإنما أن يجعل التضحية ذات معنى، وأن يُقنِع رجاله بأنهم لا يذهبون دفاعًا عن مجْد مَلِك، بل عن حقِّهم في أن يعيشوا في وطنٍ لا يأمره غريب.

• سقوط المَلِك ... وبقاء القضية

اربط

- كيف تساعد ذاكرة التضحيات السابقة جيلًا جديدًا على ألا يبدأ من نقطة الصفر؟

وجاءت المُواجَهة قاسية. لم تصنع الرواية من الحرب مهرجانًا للبطولة؛ فالحرب دمٌ وفقدٌ وانتظارٌ وقلوبٌ تتعلق بالعائدين. قاتَل (سقنن رع)، ولم تكن الشجاعة كافية لكي تَمنَح صاحبها الخلود، وسقط المَلِك.

وصل الخبر إلى طِيبة، فلم يكن خبر موت رجل فحسب. كان يمكن أن يبدو كأنه نهاية الحُلم كله، مات الذي أعلن المُواجَهة، وبقي العدو، فهل أخطأ إذن حين قاوَم؟ وهل كان الأجدر به أن يحتفِظَ بعرشه وحياته؟ ذلك هو السؤال الذي قد يطرحه مَن ينظر إلى اللحظة وحدَها.

أما (تتي شيري) فلم تكن تنظر إلى اللحظة وحدَها، كان الحزن عظيمًا، ولكن وراء الحزن شيء أصلب منه. لم تجعل موت (سقنن رع) حُجَّة للعودة إلى الخضوع، بل صار دمُه عهدًا جديدًا. لقد خَسِر البيتُ رجلًا، لكن القضية لم تخسر أصحابها. وكان الأبناء هناك، وكانت مِصر لا تزال تنتظر.

• الدمُ يصنع ذاكرة

لم تنْتهِ الحكاية بموت (سقنن رع)، بل لعلها بدأت، فالعدو الذي رأى في سقوط الملك انتصارًا لم يكن يُدرِك أن الدم الذي أُرِيق في ساحة القتال قد صنع شيئًا لا تستطيع الجيوش القضاء عليه بسهولة.. ذاكرة.

صار للأبناء أبٌ ينبغي أن يُستكمَل طريقه، وللأم أبناء تَعرِف لماذا تربيهم، ولطِيبة قضية لم تَعُدْ فكرة غامضة. وستمرُّ السنوات، وسيَكبَر الصغار، وسيتغير الرجال، أما السؤال الذي ترَكَه (سقنن رع) وراءه فلن يتغير: لمن تكون مصر؟

• عشرة أعوام لم تُطفئ الحُلم:

مضت عشرة أعوام، ولكنها لم تمْضِ على طِيبة كما تَمضِي الأعوام على المدن الآمنة الوادعة، كانت كل سنة تَزيد الجرح قِدَمًا، ولكنها تَزيد العزم قوَّة، وكأن الزمن الذي حسبه الهكسوس كفيلًا بأن يُنسِيَ المِصريين ما فقدوه، كان يفعل العكس تمامًا؛ يُربِّي في الجنوب رجالًا لم يَعرِفوا من حكايات طفولتهم إلا وطنًا مقسومًا، وملكًا قُتِل وهو يقاوِم، وأسرة لم تنزِع ثياب الحِدَاد عن القضية وإن نزعتْها عن أجسادها.

وكان (كامس) قد أصبح صاحب الراية، لم يَرِثْ عن (سقنن رع) عرشًا فحسب؛ ورِث سؤالًا لم يجِدْ أبوه له جوابًا كاملًا، وحربًا بدأتْ ولم تنْتهِ، ووطنًا لا يزال شماله في قبضة الهكسوس.

• من الحزن إلى الحكمة

أما (تتي شيري) فقد عبَرَ بها الزمن من ألَمِ الفقد إلى صلابة الحكمة، رأت الرجال يذهبون، ورأت الصِّبْية يَكبَرون، وعرفَتْ أن القضية التي تحتاج إلى جيلَينِ أو ثلاثة لا يجوز أن تُقاس بعجلة يوم أو سنة.

وكان في البيت الملكي فتى آخَر تنظر إليه العيون في صمْت: (أحمس)، كان لا يزال في أول الطريق، ولكن ما من شيء حوله كان يسمح له بطفولة عادية، كان يسمع أسماء الذين سبقوه كما يسمع غيره أسماء الأحياء؛ (سقنن رع) لم يكن عنده صورة بعيدة لجَدٍّ مات، وإنما كان بداية الطريق الذي يسير فيه البيت كلُّه.

• المُقاوَمة تُصبِح مشروعًا

فكِّر

• كيف تحوَّلتْ مُقاوَمة طِيبة من ردِّ فعْل إلى مشروع يحتاج إلى تدريب وتنظيم وصبر؟

وفي طِيبة كان الاستعداد يمضي، فالذين تعلَّموا من تجرِبة (سقنن رع) أدركوا أن الشجاعة وحدَها لا تكفي، والعدو الذي استقرَّ في البلاد زمنًا طويلًا لم يكن قوَّة يمكن إزاحتها بصيحة غضب، لا بدَّ من جيش، ولا بدَّ من تدريب، ولا بدَّ من أن يتعلم المِصريون من خصومهم ما منح هؤلاء الخصوم تفوُّقهم.

وهكذا بدأت المُقاوَمة تتحول من غضبٍ إلى مشروع، لم تَعُدْ طِيبة تنتظر إهانة جديدة حتى تثور، وإنما أخذتْ تُعِدُّ نفسَها لليوم الذي تستطيع فيه أن تختار ساعة المُواجَهة.

• الطريق إلى الشمال

تحرَّك جيش طِيبة شمالًا، ولأوَّل مرَّة لم يكن المِصريون ينتظرون أن يأتي الخطر إليهم؛ كانوا هم الذين يتقدمون نحو الأرض التي يريدون استعادتها، وكان لكل مدينة تَستردُّها القوَّات المِصرية معنى يتجاوز موقعها على الخريطة، فالناس الذين عاشوا زمنًا تحت حُكم الهكسوس كانوا يرَون رايات

الجنوب، فتعود إليهم أسماءٌ ظنُّوا أنها أصبحتْ من الماضي: مصر، والفرعون، والاستقلال.

تأمَّل

- لماذا كان استرداد المُدُن يُعيد إلى الناس الثقة قبل أن تنتهي الحرب نفسُها؟

وفي المُدن التي وصل إليها المِصريون لم يكُنِ المشهد عسكريًّا وحدَه، كان الناس يخرجون مترقِّبين، بعضهم لا يكاد يصدِّق أن رايات طِيبة صارت قريبة منه إلى هذا الحدِّ؛ شيوخ عاشوا سنوات طويلة تحت سلطان الهكسوس، وصِبْية لم يعرفوا غير ذلك السلطان، ونساء يسألْنَ عن مصير أبنائهنَّ؛ وكل هؤلاء كانوا يرَون في تقدُّم الجيش احتمالًا لحياة أخرى، وكان هذا الاستقبال يَزيد الجنود شعورًا بأنهم لا يقاتِلون من أجْل حدود على خريطة، وإنما من أجْل وجوه حقيقية تنتظر أن يتغير مصيرها.

• انتصارات تُغيِّر ميزان الخَوف

تعلَّم

- الحماسة تبدأ المُواجَهة، لكن الانضباط والتخطيط هما ما يساعدان على استمرارها.

كان التقدم شمالًا يغيِّر الجيش كما يغيِّر البلاد، فالجنود الذين خرجوا وفي نفوس بعضهم شيء من رهبة الهكسوس أخذوا يرَون بأعينهم أن الحصون يُمكِن أن تُقتحَم، وأن القوات التي طالما بدَتْ لا تُقهَر تستطيع أن تتراجع.

وكان (كامس) حريصًا على ألَّا يتحول النجاح الأول إلى غرور؛ فالطريق إلى الشمال طويل، وكل انتصار صغير قد يُصبِح بداية هزيمة إذا ظنَّ صاحبه أن الحرب انتهتْ؛ لذلك كان يعيد تنظيم صفوفه، ويستمع إلى رجاله، ويحسب ما كسَبه وما فقَده قبل أن يأمر بخطوة جديدة، وهكذا تعلَّم الجيش أن الحماسة تفتح باب المعركة، لكن الانضباط هو الذي يُبقِيه مفتوحًا حتى النهاية.

• حين تتراجع هَيبة العدو

فكِّر

- أيهما كان أشد أثرًا في الهكسوس: خسارة الأرض أم خسارة الهَيبة التي أحاطت بقوَّتهم؟

ولم يكن الطريق سهلًا، كان الهكسوس قد استقرُّوا في الشمال، وأقاموا سلطانًا قويًّا، وامتلكوا جيشًا يَعرِف كيف يقاتل، وكانت لهم عاصمتهم (أواريس)، ومنها يراقبون الجنوب الذي طالما ظنُّوا أن إخضاعه مسألة وقت.

لكن الجنوب لم يخضع، وكان (كامس) يتقدَّم، كل انتصار يفتح أمامه طريقًا إلى انتصار آخَر، وكل أرض تعُود إلى المِصريين تضيف إلى الجيش رجالًا وإيمانًا، وشيئًا فشيئًا بدأ ميزان الخوف يتغير.

فالهكسوس الذين اعتادوا أن يَنظُروا إلى أهْلِ الجنوب باعتبارهم قومًا ينبغي أن يطيعوا، أخذوا يكتشفون أن طِيبة التي ظنُّوها ضعيفة قد صارت خطرًا حقيقيًّا، أما المِصريون فقد اكتشفوا شيئًا أهمَّ: أن العدو الذي بدا لهم طويلًا أقوى من أن يُهزَم، يمكن أن يتراجَع.

• رايةٌ تنتقل من يَدٍ إلى يَدٍ

اشتدَّت المعارك، وارتفع الثمن مرَّة أخرى، وكان قدر هذا البيت الملكي أن يدفع من رجاله كلما تقدَّمتْ مِصر خطوة، فكما سقَط (سقنن رع) من قبل، لم يُكتب لـ(كامس) أن يرى نهاية الطريق، مضى هو الآخَر، وبقيَتِ الحرب.

ولو كانت القضية متعلقة برجل لانتهتْ بموت الرجل، ولو كانت متعلِّقة بعرش لربما جلس على العرش مَن يَقبَل المُساوَمة ويحفظ لنفسه ما بقي، لكنها كانت قد أصبحت أكبر من ذلك، كانت مصر نفسها هي القضية.

وهنا تقدَّم إلى المشهد ذلك الفتى الذي كان يَكبَر في ظلال الرجال الراحلين: (أحمس).

• أحمس... وارِثُ الحُلم

لم تصِلْ إلى (أحمس) راية جديدة نظيفة، وصلتْ إليه مُثقَلةً بالدم والذكريات، كان وراءها (سقنن رع)، ثم (كامس)، وبينهما نساء حمَلْنَ البيت حين كان الرجال في ميادين القتال، وفي مقدِّمتهنَّ (تتي شيري، وإياح حتب).

تأمَّل

• حين رحل (كامس) وبَقِي الهدف، ما الذي يُثبِت أن القضية أصبحتْ أكبر من الأشخاص؟

وكان عليه الآن أن يجيب بالفعل عن السؤال الذي عاش في أسرته سنوات: هل يستطيع هذا الجيل أن يُتمَّ ما بدأه السابقون؟

كان (أحمس) شابًّا، ولكن التجارِب التي نشأ بينها جعلتْه أكبر من عمره، لم يتعلم معنى المُلك أولًا من مظاهر القصر، وإنما تعلَّمه من أخبار القتال، ومن غياب الرجال الذين خرَجوا ولم يعودوا، ومن وطنٍ يرى نصفه حرًّا ونصفه الآخر ينتظر.

• ملِكٌ لا يرضى بنصف وطن

وكان يُمكِن للعرش أن يُغرِيَه بالراحة، فـ(طِيبة) له، والجنوب يعترف بسلطانه، وله جيش وشعب وقصر، ولكنه كان يعرف أن هذا كلَّه لا يَصنَع فرعونًا لمِصر ما دامتْ مصر نفسُها مُقسَّمة، فليس التاج زينة تُوضَع فوق الرأس؛ التاج مسئولية.

فَهِم (أحمس) أن الحرب الطويلة لا تَكسِبُها العاطفةُ وحدَها، فإذا كان الهكسوس قد تفوَّقوا بأساليب قتال جديدة، فلا عيب في أن يتعلم المِصري من عدوِّه ما يُعِينُه على هزيمته، الوطن لا يُحمَى بالجُمود، وإنما بالعقل الذي يَعرِف كيف يتطوَّر.

• التعلم طريقٌ إلى القوَّة

أعيد تنظيم الجيش، واشتدَّ التدريب، وأصبح الاستعداد للقتال جزءًا من حياة طِيبة، وكانت الخيول والعجلات الحربية التي ارتبطت في ذاكرة المِصريين بقوَّة الهكسوس تتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى أدوات في أيدي المِصريين أنفسهم.

وفي ذلك معنى واضح: يمكن للعدو أن يأتيك بأداة جديدة، لكن ليس له أن يحتكر المعرفة إلى الأبد، تتعلمها، وتتقنها، ثم تجعل ما كان مصدر تفوُّقِه سببًا في زوال تفوُّقِه.

• جيشٌ يقاتِل من أجْل أرْضِه

وكان (أحمس) قريبًا من رجاله، يعرف أن الجيش الذي يقاتِل من أجْل أرْضِه ليس كجيش يقاتِل طلبًا لغنيمة، هؤلاء الرجال وراءهم أمهات وزوجات وأطفال، ووراء الجميع وطن يريدون أن يرَوه واحدًا.

وحين تحركتِ القوات شمالًا، لم تكن تذهب إلى أرض غريبة، كانت تعود.

• نحو قلب سلطان الهكسوس

فكِّر

- لماذا لا يكفي أن يكون (أحمس) ملكًا على الجنوب ما دامت مِصر نفسها غير مُوحَّدة؟

مدينة بعد مدينة، كان الخِنَاق يَضِيق، لم يَعُدِ الهكسوس يَملِكون تلك الطمأنينة القديمة التي جعلتْ رجالهم ينظرون إلى طِيبة في شيء من الاستخفاف، صارت طِيبة هي التي تتقدَّم، وصارت عاصمتهم هي التي تنتظر.

وكانت (أواريس) الهدف الكبير، هناك قلبُ سلطان الهكسوس، وهناك يجب أن تُحسَم المعركة التي بدأت قبل سنوات طويلة، كلما اقترب (أحمس) منها، كانت المسافة بينه وبين حُلم أسرته تَقصُر، ولكن الخطر كان يزداد.

• أواريس تحت الحصار

تعلَّم

- التعلم من الخَصْم لا يعني تقليده؛ بل قد يُحوِّل المعرفة التي منحته التفوق إلى وسيلة لتَجاوُزِه.

وحوصرت (أواريس)، وطالت المُواجَهة، وكانت الحرب تُعلِّم (أحمس) مرَّة أخرى أن الرغبة في النصر شيء، والقدرة على انتزاعه شيء آخر، لا بدَّ من صبر القائد الذي يعرف متى يَهجُم؟ ومتى ينتظر؟ ومتى تكون التضحية ضرورة؟ ومتى تكون إهدارًا للرجال؟

ولم يكن جنوده يحتاجون في كل مرَّة إلى خطبة طويلة، كان وجود (أحمس) بينهم، ومشاركته لهم عناء الانتظار وخطر القتال، كافيًا ليَشعُروا أن المعركة واحدة للجميع، فإذا تعثَّر هجوم عادوا إلى مواقعهم لا بوصْفِهم مهزومين، بل بوصْفِهم رجالًا تعلَّموا شيئًا جديدًا عن دفاعات خَصمِهم.

وإذا تحقَّق تقدُّمٌ صغيرٌ لم يُضيِّعوه في الاحتفال، وإنما جعلوه موضعًا يَبنُون عليه الخطوة التالية، وهكذا أخذ الحصار يضغط على المدينة شيئًا فشيئًا، حتى صار الهكسوس أنفسُهم يُدرِكون أن الزمن الذي كان يعمل لصالحهم قد انقلب عليهم.

• ليلٌ طويلٌ قبل الحسم

وكان الليل حول (أواريس) طويلًا، في معسكر المِصريين تهدأ الأصوات قليلًا، لكن العقول لا تهدأ، جندي يفكر في أسرته البعيدة، وآخَر يتذكر رفيقًا فقَدَه في الطريق، وقائد يُراجِع في ذهنه مواقعَ الحراسة ومسالك الهجوم، أما (أحمس) فكان يَعرِف أن وراء تلك الأسوار نهاية فصلٍ كاملٍ من تاريخ بلاده، وأن استعجال النصر قد يُبدِّد ما صنعَتْه سنوات من الإعداد، كان عليه أن يُقاوِم رغبته الطبيعية في الحسم السريع، وأن يختار اللحظة التي يكون فيها الهجوم أقلَّ كلفة وأكثر أثرًا، وفي هذا الامتحان بدا الفرق بين الشاب الذي وَرِثَ حُلمًا، والقائد الذي أصبح قادرًا على حَمْلِه.

• الانتظار وجهٌ آخَر للمعركة

وكانت الأخبار تصِلُ إلى طِيبة، إلى النساء اللَّاتي انتظرنَ طويلًا، وإلى (تتي شيري) التي شهِدتْ بداية الحُلم، ورأت رجلًا بعد رجلٍ يَحمِل الراية، وإلى (إياح حتب) التي تَعرِف أن ابنها الآن في الموضع نفْسِه الذي وقف فيه رجال الأسرة من قبله.

ولم يكن الانتظار أقلَّ قسوةً من القتال، فالمُحارِب يعرف ما أمامه، أما المُنتظِر فيعيش بين الأمل والخوف، ولا يملك إلا أن يترقَّب الخبر القادم.

• سقوط أواريس

فكِّر

- لماذا يحتاج القائد إلى معرفة متى ينتظر، لا متى يهاجِم فقط؟

اشتدَّ الحصار، ثم بدأتْ أسوار القوَّة التي بدتْ يومًا ثابتةً تتصدَّع، لم يكن الهكسوس يخسرون مدينة فقط، بل كانوا يخسرون الهَيبة التي عاش سلطانهم عليها، فما دام المِصريون يعتقدون أنهم لا يستطيعون طردهم، ظلَّ بقاؤهم مُمكِنًا؛ أمَا وقد وصَلَ الجيش المِصري إلى قلبِ سلطانهم، فقد تغيَّر كل شيء.

وسقطت (أواريس)، كان يُمكِن لـ(أحمس) أن يقِفَ عند ذلك الحدِّ، وأن يُعلِن النصر، لقد استعاد المِصريون عاصمة الهكسوس، وانكسر سلطانهم في البلاد، ولكن القائد الذي تعلَّم من تاريخ أسرته لم يكن يريد نصرًا ناقصًا.

• نصرٌ لا يَقبَل أنصافَ الحُلول

فالعدوُّ الذي يخرج اليوم ليُعيد تنظيم نفسه خلف الحدود قد يعود غدًا؛ ولهذا لم تكن الغاية أن يبتعد الهكسوس عن طِيبة، ولا أن يتركوا بعض المدن المِصرية، بل أن ينتهي وجودُهم بوصْفِهم قوة قادرة على تهديد مِصر من جديد.

وتابَع (أحمس) المُطارَدة، خرج بهم القتال بعيدًا عن قلْب البلاد، وتعقَّب المِصريون فُلول القوَّة التي حكمتْهم زمنًا، وكان كل مِيلٍ يبتعد فيه الهكسوس عن مصر يُعيد للمِصريين جزءًا من شعورهم بأنفسهم. حتى جاء اليوم الذي أصبح فيه ما بدا مستحيلًا حقيقة؛ تحرَّرتْ مِصر.

• بعد التحرير تبدأ المسئولية

أما (أحمس)، فلم يكن في وُسعِه أن يتعامل مع اللحظة باعتبارها نهاية واجبه.

كان النصر يمنحه مجْدًا، لكنه يمنحه كذلك عبئًا جديدًا، فالبلاد التي خرجتْ من حرب طويلة تحتاج إلى أن تطمئن، والجيش الذي انتصر يحتاج إلى أن يبقى قويًّا، والحدود التي انفتح منها الخطر مرَّة تحتاج إلى مَن يَحرُسها.

لمحة أدبية

• مع اقتراب سقوط (أواريس) يتصاعد التوتر؛ لأن النصر يأتي نتيجة تراكُم طويل لا مفاجأة سريعة.

ومن هنا أخَذَ معنى الكفاح يتَّسِع: لم يَعُدْ طرد المحتلِّ وحدَه هو الغاية، بل بناء دولة تستطيع أن تمنع عودة ما حدث، وهكذا يُصبِح النصر في الرواية بداية مسئولية، لا خاتمة مُريحة للحكاية.

انتقلتْ بشائر التحرير من فَمٍ إلى فَمٍ، ومن بَيتٍ إلى بَيتٍ، حتى بدا كأن المدينة كلَّها تستعيد في لحظة واحدة وجُوه الغائبين، لم يكن الفرح خالصًا من الحزن؛ فكل أسرة دفعت ثمنًا كانت تتمنى لو أن مَن فقدتْهم يقِفُون معها الآن، وربما كان أجمل ما في ذلك اليوم أن الناس لم يذكُروا المنتصرين وحدهم، بل تذكَّروا الذين بدءوا الطريق ولم يبلغوا نهايته، صار اسم (سقنن رع) حاضرًا، وعاد (كامس) إلى الذاكرة، وبدَتِ السنوات القاسية كأنها حلقات في سلسلة لم يفهم الناس معناها كاملًا إلا حين اكتملتْ.

• نصرٌ صنعَتْه أجيال

لم يكُنِ النصر صرخة واحدة في مَيدان، كان حصيلة سنوات طويلة من الفقد والعمل والصبر، لو نظر (أحمس) وراءه لرأى طريقًا مملوءًا بالذين لم يصِلُوا معه إلى النهاية: (سقنن رع) بدأ، و(كامس) تابَع، والنساء حفِظنَ البيت والإرادة، والجنود -المعروف منهم والمجهول- حمَلُوا الحُلم في المَيدان، ثم جاء هو ليَضَعَ الخطوة الأخيرة.

ولهذا لم يكن النصر مِلْك (أحمس) وحده، كان انتصار جيلٍ أكمَلَ عمَلَ جيلٍ، وكان ذلك -ربَّما- أجمل ما في الحكاية، فالإنسان يحِبُّ أن يرى ثمرة ما يفعل، ولكن الأعمال الكبرى لا تَمنَح أصحابها هذا الامتياز دائمًا، قد يزرع أحدهم شجرة لا يجلس في ظلِّها، وقد يبدأ طريقًا لا يصِلُ بنفسه إلى نهايته، لكن ذلك لا يجعل ما صنعه أقل قيمة.

• مصر تستعيد إرادتها

عاد النِّيل يجري في دولة واحدة، لم تَعُدْ هناك حدود داخِلَ الأرض المِصرية تَفصِل مِصريًّا عن مِصري، ولم يَعُدْ في الشمال ملِك أجنبي يستطيع أن يبعث إلى الجنوب أمرًا فينتظر الطاعة.

وعاد التاج إلى معناه الكامل، وأصبح (أحمس) فرعون مصر الموحَّدة، ولكن قيمة النصر لم تكن في التاج وحدَه؛ فأهمُّ ما استعادته مِصر لم يكن قصرًا أو مدينة، بل استعادت إرادتها.

• من تحرير الأرض إلى بناء الدولة

تأمَّل

• لماذا امتزج الفرح بالتحرير بذكرى من بدءوا الطريق ولم يعيشوا ليرَوا نهايته؟

وكان من السهل أن تنتهي الحكاية عند لحظة الانتصار: الجنود عائدون، والأعلام مرفوعة، والناس يحتفلون، لكن الوطن لا يعيش بالانتصارات العسكرية وحدَها، فبعد أن يسكت السيف تبدأ مهمة أخرى: كيف تُبنى البلاد التي تحرَّرتْ؟

كان على مصر أن تستعيد أمْنَها، وأن تقوِّيَ جيشها، وأن تتعلم من التجرِبة التي مرَّت بها حتى لا تُصبِح الحرية التي دفعتْ ثمنها الكبير حادثًا مؤقتًا، فالاستقلال الذي لا تحميه القوَّة والوعي قد يُفقَد مرَّة أخرى.

وهكذا تحوَّل (أحمس) من قائد يطارِد عدوًّا إلى ملِكٍ عليه أن يحمِيَ دولة، وكان الماضي حاضرًا في هذه المهمة، فالذين ضحَّوا لم يضحُّوا من أجْل أن يخرج الهكسوس فقط، وإنما من أجْل أن تعُود مِصر قوية قادرة على أن تختار مصيرها بنفسها.

• مَن شَهِد البداية يرى الثمرة

اربط

• تحقيق الهدف لا يعني انتهاء المسئولية. ما الذي يحتاجه النجاح حتى يستمرَّ؟

ولعل (تتي شيري)، وهي تنظر إلى ما انتهتْ إليه رحلة الأسرة، كانت أكثر الناس قدرة على فهْم معنى اللحظة، فهي التي رأتِ البداية حين لم يكُنْ في الأفق نصرٌ، ورأت (سقنن رع) يختار المُواجَهة، وعاشت ألَمَ سقوطه، ورأت الراية تَنتقِل، ورأت الصبية يصيرون رجالًا، وها هي ترى مِصر التي حَلَمُوا بها تعود.

كم يبدو الطريق قصيرًا حين نروي نهايته في كلمات! لكنَّ بين الحُلْم وتحقيقه أعمارًا كاملة.

• حين يقترب التاريخ من حياتنا

قد يظن القارئ أن (كفاح طِيبة) رواية عن زمنٍ بعيدٍ لا تربطه بحياتنا إلا كُتُب التاريخ: ملوك قُدَامى، وهكسوس، وعجلات حربية، ومدن تغيَّرتْ أسماؤها أو اختفتْ، لكن الرواية تجعل المسافة بين الماضي والقارئ أقصر من ذلك بكثير.

فالسؤال الذي يحرِّكها ليس قديمًا: ماذا يفعل الإنسان حين يجِدُ واقعًا لا يرضاه؟ هل يقْبلُه لأنه قائم وقوي، أم يبدأ في تغييره، ولو كان يعرف أن التغيير قد يستغرق زمنًا أطول من عمره؟

لقد كان (سقنن رع) يستطيع أن يقول: هذه هي حدود قوَّتِنا، وكان (كامس) يستطيع أن يقول: لقد دفعنا ثمنًا كافيًا، وكان (أحمس) يستطيع أن يرضى بمُلك الجنوب، ولو قال كل واحد منهم ذلك لوجد لنفسه أسبابًا تبدو معقولة.

لكن التاريخ لا تصنعه دائمًا الأسباب التي تُبرِّر الواقع، أحيانًا يصنعه الذين يسألون: لماذا يجب أن يبقى الواقع كما هو؟

• البطل وطنٌ كامل

وهذا هو قلب (كفاح طِيبة)، ليست البطولة أن يُولَد الإنسان قويًّا لا يَعرِف الهزيمة؛ فمصر التي نراها في بداية الرواية ليست منتصِرة، إنها وطنٌ مجروح، ولكنها لا تجعل الجرح هُوِيَّتها، ولا تجعل الهزيمة قَدَرَها.

تأمَّل

• ما الذي يجعل الكفاح في الرواية أوسع من مجرد انتصار عسكري؟

تتعلم من عدوِّها، وتُنظِّم قوَّتها، وتحتمل خسائرها، وتُورِّث أبناءها الهدف حتى يأتي اليوم الذي تستطيع فيه أن تُغيِّر ما بدا يومًا غير قابل للتغيير.

وهكذا يعود معنى عنوان الرواية كاملًا، إنه (كفاح طِيبة)، لا انتصار (أحمس) وحده؛ لأنَّ النصر لحظة، أما الكفاح فسنواتٌ من الإيمان والعمل والتضحية، ولأن البطل في النهاية لم يكن رجُلًا واحدًا؛ كان وطنًا كاملًا رفض أن يَنسَى نفسه.

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكّر

١. لماذا لم يؤدِّ موت (سقنن رع) و(كامس) إلى انتهاء مشروع المقاوَمة؟

٢. كيف تغيرتْ نظرة المِصريين إلى الهكسوس مع تقدُّم الكفاح؟

• ثانيًا: أتأمَّل

١. أيُّهما كان أكثر أثرًا في تحقيق النصر: شجاعة القادة أم استمرار الهدف من جيل إلى جيل؟ ولماذا؟

٢. ما الذي يجعل الإنسان يعمل من أجْل هدفٍ قد لا يرى نتيجته بنفسه؟

• ثالثًا: أناقِش

١. «التعلم من الخَصم لا يعني تقليده، وإنما امتلاك أسباب القوة التي تساعد على تجاوزه». ناقِش هذه الفكرة في ضَوء الرواية.

٢. هل ترى أن بطل (كفاح طِيبة) الحقيقي هو (أحمس)، أم الأسرة الملكية، أم الشعب المِصري؟ ادعم رأيك بما قرأتَ.

• رابعًا: أربط بحياتي

١. اذكر موقفًا يمكن فيه تطبيق فكرة: قد يبدأ إنسانٌ عملًا ويتمُّه غيره.

٢. ما المهارة أو العادة التي تحتاج إلى صبرٍ واستمرار حتى لو لم تظهر نتائجها سريعًا؟

• خامسًا: أبدع

تخيل أنك أحد شباب طِيبة في اليوم الذي وصل فيه خبرُ تحرير مِصر. اكتب فِقرة قصيرة تصِف فيها ما شعَرتَ به، وما كنت تودُّ أن تقُولَه لمَن بدءوا الكفاح ولم يعيشوا ليرَوا النصر.

الأرض
عبد الرحمن الشرقاوي

«الأرض» ومسيرة مؤلفها
عبد الرحمن الشرقاوي

نبذة عن حياته ونشأته

اسمه «عبد الرحمن الشرقاوي»، شاعر وروائي وكاتب مسرحي مصري، وصوت الفلاحين المهمشين. وُلد في مطلع العشرينيات (١٩٢٠م) في إحدى قرى محافظة المنوفية، حيث تشرَّب منذ طفولته روح الريف المصري، وعاش عن قرب تفاصيل حياة الفلاحين وصراعهم اليومي. درس الحقوق وتخرَّج فيها، لكن نداء الكلمة والعدالة كان أقوى؛ فانخرط في الصحافة والأدب. امتلك قدرة فذة على نقل نبض القرية المصرية إلى الأدب الحديث، جاعلًا من الفلاح البسيط بطلًا حقيقيًّا يدافع عن كرامته وهويته وتُوفِّي عام ١٩٨٧م.

المحطات المهمة في حياته

عمل في المحاماة لفترة قصيرة قبل أن يتجه للصحافة، حيث ترأَّس تحرير عدة مجلات وصحف كبرى مثل «روز اليوسف». يُعَد الشرقاوي رائدًا للرواية الواقعية في الأدب العربي، وأحد أهم مجددي «المسرح الشعري» بعد أحمد شوقي وعزيز أباظة. تُوِّجت مسيرته بحصوله على «جائزة الدولة التقديرية في الآداب»، تقديرًا لدوره العميق في إثراء الوجدان العربي وربط الأدب بقضايا الجماهير الحقيقية.

التحديات التي واجهها

واجه الشرقاوي تحديًا أدبيًّا واجتماعيًّا كبيرًا؛ فقد كان الأدب قبله يميل للتركيز على الطبقات الأرستقراطية وقضايا النخبة، وكان التحدي أمامه يتمثل في: كيف يجعل من هموم البسطاء والفلاحين أدبًا رفيعًا ومؤثرًا؟ تغلَّب على ذلك بجعل الصراع ملموسًا وواقعيًّا. واجه أيضًا تحديات قاسية مع «الإقطاع» والطبقية، حيث كان قلمه بمثابة سلاح يدافع عن حقوق الكادحين، كما يظهر في «الأرض»، واجه تحديًا كشف كيف يتحول التردد والخوف في نفوس الرجال إلى قرار حاسم وموقف جماعي؛ مبينًا أن الشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل القدرة على اتخاذ موقف رغم وجوده.

إضاءة

- الأرض لا تكون مهمة؛ لأنها تُملك، بل لأنها تمنح الإنسان معنى لوجوده وانتمائه.

أهم الكتب والمؤلفات

لم تكن كتابات الشرقاوي مجرد حكايات تُروَى، بل كانت صرخة في وجه الظلم ودعوة للتحرر والتمسك بالحقوق.

من أبرز أعماله:

- **«الشوارع الخلفية»:**

رواية عظيمة صوَّر فيها نضال الشعب المصري بمختلف طبقاته ضد الاحتلال.

- **«الحسين ثائرًا» و«الحسين شهيدًا»:**

مسرحيات شعرية استلهم فيها التاريخ لتقديم رسالة خالدة عن التضحية والوقوف في وجه الاستبداد.

- **«محمد رسول الحرية»:**

كتاب فكري يسلط الضوء على الجوانب الإنسانية والتحررية في سيرة النبي محمد ﷺ.

- **«الأرض»:**

دُرِّته الروائية الخالدة، وهي رواية واقعية اجتماعية تدور أحداثها في بيئة الريف المصري، اختار الكاتب أن يروي هذه الحكاية من داخل القرية بلغة قريبة من الناس.

وصف العمل الأدبي

تتكون الرواية من خمسة أجزاء رئيسية، يندرج تحتها واحد وعشرون فصلًا مرقمًا، تسرد في مجملها نضال الفلاحين المصريين ضد الإقطاع والظلم.

صدرت الرواية للأديب عبد الرحمن الشرقاوي في طبعتها الأولى عام ١٩٥٤م. وتُعَد من أشهر روايات الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي.

- **فكرة العمل:**

تصوِّر الرواية صراع الفلاح المصري من أجل أرضه في مواجهة قوى تسعى لانتزاعها بحجة إنشاء طريق جديد سيمر فيها، ومن خلال شخصيات حقيقية ونابضة مثل «محمد أبو سويلم»، تكشف الرواية كيف تتحول الأرض من شيء عادي إلى قضية وجود، ومن مصدر رزق إلى رمز للكرامة والانتماء.

- **أبرز القيم التي يعالجها العمل:**

التمسك بالحق، الانتماء للأرض، الكرامة الإنسانية، التضامن الجماعي، الشجاعة في مواجهة الظلم.

• تمهيد:

تأمل

• بعض الحكايات لا تبدأ من الأحداث الكبيرة، بل من تفاصيل تبدو عادية لكنها تحمل البذور الأولى للتغيُّر.

ليست «الأرض» رواية عن الزراعة، ولا عن الريف فقط، بل هي رواية عن الإنسان حين يُمتحن في أبسط ما يملك وأعمقه في الوقت نفسه، فهي تكشف كيف يمكن لشيء يبدو عاديًّا – قطعة أرض – أن يتحول إلى قضية وجود، حين يصبح مهددًا.

اختار عبد الرحمن الشرقاوي أن يروي هذه الحكاية من داخل القرية، لا من خارجها، فجاءت اللغة قريبة من الناس، والمشاهد نابضة بالحياة، والشخصيات حقيقية تشبه من نراهم في حياتنا. ومن خلال هذا العالم البسيط، يطرح الكاتب سؤالًا عميقًا: ماذا يفعل الإنسان حين يُطلَب منه أن يتخلى عن جزء من نفسه؟

ولأن الأرض في هذه الرواية ليست مجرد مكان، بل معنى، فإن الصراع فيها لا يكون خارجيًّا فقط، بل داخليًّا أيضًا؛ بين الخوف والتمسك، بين الصمت والموقف، بين ما يمكن احتماله وما لا يمكن التنازل عنه.

نافذة على الفكرة

• بعض القرارات الكبيرة تبدأ بكلمات صغيرة، لكنها تحمل في داخلها تغييرات لا يمكن تجاهلها.

كان الرجال يعرفون الأرض كما يعرفون أنفسهم؛ وجوههم تحمل أثر الشمس، وأيديهم تشهد بما بذلوه من جهد، فلا هم غرباء عنها ولا هي بعيدة عنهم. كانوا جزءًا منها، تعطيهم ويعطونها، ويستمدون منها معنى وجودهم قبل أن يستمدوا منها رزقهم. ومع ذلك، كان في حديثهم شيء خفي، شيء لم يتشكل بعد في كلمات واضحة، لكنه بدأ يظهر في نبرات الصوت ونظرات العيون.

بدأ الحديث عن طريق جديد سيمر في الأرض، وكان الأمر في ظاهره بسيطًا، مجرد فكرة أو خبر يتناقله الناس، لكن أثره لم يكن بسيطًا؛ فمجرد أن يمر طريق في الأرض يعني أن شيئًا منها سيؤخذ، وأن جزءًا مما اعتادوه سيتغير. لم يكن أحد يعرف التفاصيل، لكن الفكرة وحدها كانت كافية لتثير القلق، وكأن الكلمات القليلة التي قيلت فتحت بابًا واسعًا للأسئلة.

لم يظهر الخوف صريحًا، لكن الوجوه تغيرت قليلًا، وصار الحديث أبطأ، وكأن كل واحد يفكر في الأمر بطريقته. تساءلوا في داخلهم: هل ستؤخذ الأرض؟ كم سيؤخذ منها؟ وهل يمكن أن يمنعوا ذلك؟ كانت هذه الأسئلة تدور دون أن تُقال بوضوح، لكنها كانت حاضرة في الصمت أكثر مما كانت في الكلام.

وفي هذا الجو، برزت شخصية محمد أبو سويلم، لا لأنه تكلم كثيرًا؛ بل لأن حضوره كان مختلفًا. كان من الرجال الذين يُنظَر إليهم حين تسكت الأصوات، وكأنهم يحملون في صمتهم ما يعجز الآخرون عن قوله. وقف بينهم يتأمل الأرض والوجوه، ولم يكن في ملامحه اضطراب ظاهر، لكن شيئًا من الحزم بدأ يتشكل.

إضاءة

• بعض الشخصيات لا تفرض نفسها بالكلام، بل بالموقف الذي يظهر في اللحظة المناسبة.

حين سأل أحدهم: «وإذا أخذوا الأرض؟» لم يكن السؤال مجرد استفسار، بل كان بداية تحوُّل. فقد خرجت الفكرة من حدود الهمس إلى دائرة المواجهة، وصار الصمت الذي تلا السؤال أكثر ثقلًا، كأن الجميع ينتظر إجابة لا يملكها أحد.

نظروا إلى بعضهم، ثم إلى الأرض، وكأنهم يحاولون أن يستمدوا منها طمأنينة لم تعد واضحة كما كانت.

كانت الأرض بالنسبة لهم أكثر من مصدر رزق؛ كانت كرامة وهوية؛ فمن يفقد أرضه لا يفقد عمله فقط، بل يفقد مكانه في هذا العالم، ويفقد جزءًا من صوته ومن قدرته على الوقوف؛ ولهذا لم يكن الحديث عن الطريق حديثًا عاديًّا، بل كان بداية شعور بأن شيئًا أساسيًّا في حياتهم قد يصبح مهددًا.

ساد الصمت مرة أخرى، لكنه لم يكن صمتًا فارغًا، بل كان ممتلئًا بالتفكير والخوف، وبشيء آخر بدأ يتشكل ببطء.. شيء يشبه الرغبة في الرفض. لم يكن القرار قد اتُّخِذ بعدُ، لكن ملامحه الأولى ظهرت، وكأن اللحظة التي يختار فيها الإنسان موقفه تسبق دائمًا لحظة إعلانه.

وهكذا، لم يحدث صدام بعد، ولم تتغير الأرض في ظاهرها، لكن القلوب لم تعد كما كانت، والطريق الذي كان مجرد فكرة بدأ يترك أثره في النفوس. ومن هنا تبدأ الحكاية الحقيقية، لا حين يقع الحدث، بل حين يبدأ الناس في الشعور به.

• حين يتحول القلق إلى موقف:

لم يعد الحديث عن الطريق مجرد فكرة عابرة، بل بدأ يثبت في العقول كأنه حقيقة تقترب. ومع تكرار الكلام عنه لم يعد القلق ساكنًا في الداخل، بل صار يظهر في نبرات الصوت، وفي طريقة النظر إلى الأرض، وكأن الفلاحين بدءوا يرون حقولهم بعين مختلفة، عين تخشى الفقد قبل أن يقع.

تأمل

- حين يتعلق الأمر بما نحبه، لا نفكر في الجزء المفقود فقط، بل فيما سيتغير بعده.

كان كل واحد منهم يحاول أن يقدِّر ما يمكن أن يحدث، لا بالأرقام، بل بالإحساس، فالأرض لا تُقاس عندهم بالمساحة فقط، بل بما تمثله في حياتهم؛ ولهذا لم يكن السؤال عن «كم سيؤخذ؟» هو الأهم، بل كان السؤال الحقيقي: ماذا سيبقى لنا بعد ذلك؟

بدأت الجلسات تطول، ولم يعد الحديث يمرُّ مرورًا سريعًا كما كان. صار الرجال يجتمعون أكثر، يتبادلون الرأي، ويستمع بعضهم إلى بعض، وكأنهم يبحثون عن يقين لا يملكه أحد. كانت الكلمات تتكرر، لكن المعنى يتعمَّق، ومع كل مرة يُذكَر فيها الطريق، كان الشعور بالخطر يزداد وضوحًا.

في هذه اللحظات، لم يكن الاختلاف بينهم كبيرًا، فالجميع يشعر بالقلق نفسه، لكن الفارق كان في طريقة التعامل معه، هناك مَن رأى أن الأمر خارج عن إرادتهم، وأن ما سيحدث لا يمكن تغييره، وهناك مَن بدأ يشعر أن الصمت قد يكون بداية الخسارة، لا نهايتها.

لمحة

- الناس لا يختلفون في الإحساس بالخطر، بل يختلفون في طريقة مواجهته.

برز صوت محمد أبو سويلم أكثر في هذه المرحلة، لا لأنه يملك الحل، بل لأنه رفض أن يكتفي بالخوف. لم يكن اندفاعه صاخبًا، بل كان نابعًا من شعور عميق بأن الأرض ليست شيئًا يمكن التنازل عنه بسهولة. كان يرى أن السكوت ليس حيادًا، بل موقف يحمل في داخله قبولًا غير معلن.

تحدَّث هذه المرة بوضوح أكبر، لم يكن كلامه طويلًا، لكنه كان مباشرًا، وكأنه يضع أمامهم خيارًا لا يمكن تأجيله: إما أن يقفوا، أو يتركوا الأمر يمر دون مقاومة. لم يكن في صوته غضب، بل كان فيه ثبات، ذلك الثبات الذي يجعل الآخرين يعيدون التفكير.

بدأت الكلمات تتحول إلى اتجاه، ولم يعد الحديث يدور حول ما سيحدث فقط، بل حول ما يمكن فعله. ومع ذلك، لم يكن القرار سهلًا؛ فالفلاح يعرف قيمة الأرض، لكنه يعرف أيضًا ثقل المواجهة، ويعرف أن الوقوف في وجه ما لا يفهمه تمامًا قد يحمل نتائج لا يمكن التنبؤ بها.

نافذة على الفكرة

- القرار لا يُولَد فجأة، بل يتكوَّن ببطء حتى يصل إلى لحظة لا يمكن تأجيله بعدها.

تردَّد البعض، لا ضعفًا، بل حسابًا؛ فالمواجهة ليست مجرد رغبة، بل مسئولية، وقد يكون ثمنها أكبر مما يتوقعون. لكن في المقابل، كان هناك شعور آخر يتصاعد: أن التراجع الآن قد يعني خسارة لا يمكن تعويضها.

وفي هذا التردد، بدأت ملامح الاختبار الحقيقي تظهر، لم يعد الأمر متعلقًا بالطريق وحده، بل بما يكشفه هذا الطريق من معانٍ أعمق: معنى التمسك، ومعنى الكرامة، ومعنى أن يكون للإنسان صوت حين يُهدَّد ما يملك.

لم يكن أحد قد أعلن القرار بعد، لكن الاتجاه بدأ يتشكل، صار الصمت أقل، والكلمات أكثر وضوحًا، والنظرات أكثر حدة، وكأن كل واحد منهم بدأ يقترب من لحظة يحدد فيها موقعه.

وفي نهاية هذه المرحلة، لم يكن الصراع قد بدأ في الخارج، لكنه بدأ في الداخل، فقد انتقل من مجرد خوف إلى تفكير، ومن تفكير إلى ميل نحو موقف، وهذا هو التحول الأهم؛ فالمواجهة الحقيقية لا تبدأ حين نتحرك، بل حين نقرر أننا لن نظل ساكنين.

• حين يصبح الصمت مستحيلًا:

لم يعد الانتظار ممكنًا كما كان، فالكلام الذي كان يدور في المجالس بدأ يقترب من الواقع، ولم يعد الطريق مجرد خبر يُتداوَل، بل صار شيئًا يستعد ليظهر في الأرض نفسها. ومع هذا الاقتراب، لم يعد الصمت خيارًا مريحًا، بل صار عبئًا ثقيلًا، يشعر به كل من يطأ الأرض ويعرف قيمتها.

كان الفلاحون ينظرون إلى حقولهم نظرة مختلفة؛ لم تعد نظرة العمل اليومي المعتاد، بل نظرة مَن يخشى أن يرى هذا المشهد يتغير. صار المرور في الأرض يحمل إحساسًا خفيًّا بالفقد، كأنهم يودِّعون شيئًا لم يفقدوه بعد، لكنهم يشعرون بقرب رحيله.

• لحظة المواجهة الأولى:

حين ظهرت أولى علامات التنفيذ، لم يعد الأمر يحتمل التأجيل، لم يكن المشهد صاخبًا في بدايته، لكنه كان

واضحًا بما يكفي ليحسم التردد، فقد صار ما كان يُقال يُرى، وما كان يُتخيَّل يتحول إلى واقع.

وقف الرجال، لا بدافع الاتفاق الكامل، بل بدافع شعور واحد جمعهم: أن هذه اللحظة لا يمكن تجاوزها دون موقف. لم يكن في وقفتهم تنظيم دقيق، ولا خطة واضحة، لكنها كانت وقفة نابعة من إحساس عميق بأن الأرض ليست شيئًا يمكن التنازل عنه بسهولة.

كان محمد أبو سويلم في مقدمتهم، لا لأنه أراد ذلك، بل لأن موقفه قاده إليه. لم يكن ينظر حوله كثيرًا، بل كان ينظر إلى الأرض، كأنه يستمد منها ثباته. ولم يكن كلامه طويلًا، لكنه كان كافيًا ليؤكد ما شعر به الجميع: أن الوقوف الآن ليس اختيارًا، بل ضرورة.

إضاءة

- حين تتضح اللحظة، لا يحتاج الإنسان إلى كثير من الكلام ليعرف ماذا يفعل.

• التردد.. والاختيار:

لم يكن الجميع بنفس الدرجة من الحسم. فبعضهم شعر بالخوف، لا من الأرض، بل مما قد يترتب على المواجهة، كانوا يعرفون أن الوقوف قد يحمل ثمنًا، وأن هذا الثمن قد لا يكون بسيطًا.

لكن في المقابل، كان هناك شعور آخر يتصاعد: أن التراجع الآن لن يحفظ شيئًا، بل قد يفتح الباب لفقدٍ أكبر. وهنا بدأ التردد يتحول إلى اختيار، لا لأن الخوف اختفى، بل لأن الإحساس بالمسئولية أصبح أقوى.

• الأرض.. في قلب الصراع:

نافذة على الفكرة

- حين ترتبط الأشياء بالكرامة، يتحول الدفاع عنها إلى دفاع عن الذات.

في تلك اللحظات، لم تكن الأرض مجرد خلفية للأحداث، بل كانت في قلبها. كان كل موقف يُتَّخَذ مرتبطًا بها، وكل خطوة تُحسَب على أساسها. لم تكن قضية مساحة تؤخذ، بل قضية معنى يُهدَّد.

صار الفلاح يشعر أن وقوفه ليس دفاعًا عن رزقه فقط، بل عن كرامته. فالأرض التي عاش عليها، وعرفها، وبذل فيها جهده، أصبحت الآن موضع اختبار: هل تبقى له كما كانت، أم تتحول إلى شيء لا يملك فيه قرارًا؟

• بداية الاحتكاك:

لمحة

- الاختلاف لا يكون دائمًا في النية، بل في زاوية النظر.

لم تظل المواجهة في حدود النظرات والمواقف الصامتة، بل بدأت تقترب من الاحتكاك المباشر. لم يكن ذلك بدافع الرغبة في الصدام، بل نتيجة طبيعية لاقتراب المصالح وتعارضها.

كانت اللحظة دقيقة؛ فكل طرف يرى الأمر من زاويته، لكن الفلاح كان يرى الأرض، بينما يرى الآخرون التنفيذ. وهنا يظهر الفرق بين من يعيش الشيء، ومن يتعامل معه كجزء من مهمة.

• اختبار الرجال:

في هذه اللحظة، لم يعد الكلام هو المقياس، بل الفعل. ظهرت معادن الرجال، ليس فيما يقولون، بل فيما يفعلون. من كان مترددًا، بدأ يحدد موقفه، ومن كان صامتًا، بدأ يجد صوته.

لم يكن أحد يدَّعي الشجاعة الكاملة، لكنهم جميعًا أدركوا أن الوقوف معًا هو ما يمنحهم القوة؛ فالفرد قد يتراجع، لكن الجماعة تمنح نفسها ثباتًا لا يملكه الواحد وحده.

• لحظة لا تُنسى:

لم تكن هذه اللحظة مجرد حدث عابر، بل كانت نقطة تحوُّل، فبعدها، لم يعد أحد كما كان قبلها، لم تعد الأرض مجرد عمل يومي، بل صارت قضية، ولم يعد الصمت مجرد خيار، بل صار موقفًا له ثمن.

كان كل واحد منهم يشعر أنه دخل مرحلة جديدة، مرحلة لا يمكن فيها العودة إلى ما كان عليه دون أن يتغير شيء في داخله.

إضاءة

- بعض اللحظات لا تغيّر الواقع فقط، بل تغيّر الإنسان نفسه.

• حين تدفع الأرض ثمنها.. ويكتشف الإنسان معناه:

لم يعد الصراع مجرد موقف مؤقت، بل أصبح واقعًا يفرض نفسه على الجميع. ومع تصاعد الأحداث، بدأ الثمن يظهر، لا في الأرض وحدها، بل في النفوس التي اختارت أن تقف. لم يكن الطريق مجرد مشروع يمر، بل كان قوة تفرض تغييرًا، وكان الفلاح يقف في مواجهته بما يملك: إرادته، وإحساسه بأن ما يدافع عنه ليس قابلًا للتعويض.

كان المشهد يتغير، ولم يعد كما كان في البداية، لم تعد المواجهة مجرد وقفة، بل صارت اختبارًا حقيقيًّا: إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يتمسك بأرضه؟ وماذا يفعل حين يجد نفسه أمام قوة أكبر منه؟

• الثمن:

بدأت آثار الصراع تظهر بوضوح، ولم يعد الأمر متعلقًا بالكلام أو حتى بالموقف وحده. صار لكل اختيار نتيجة، ولكل وقفة تبعات. لم يكن الثمن واحدًا للجميع، لكنه كان حاضرًا بما يكفي ليجعل كل واحد يعيد النظر، ولو لحظة، فيما يفعله.

لكن رغم ذلك، لم يكن التراجع سهلًا. فالفلاح الذي وقف مرة، لم يعد يستطيع أن يعود كما كان، لم يكن ذلك عنادًا، بل لأن الوقوف كشف له معنى لم يكن واضحًا من قبل، لم تعد الأرض مجرد شيء يملكه، بل صارت شيئًا يعرِّفه.

إضاءة

- بعض المواقف تغيّر الإنسان إلى درجة لا يستطيع بعدها أن يعود كما كان.

• الأرض.. رمزًا لا مكانًا:

مع تصاعد الأحداث، خرجت الأرض من كونها قطعة تُزرَع، إلى كونها رمزًا

نافذة على الفكرة

- حين تتحول الأشياء إلى رموز، يصبح التنازل عنها فقدًا للمعنى، لا للشيء فقط.

لمعانٍ أكبر، صارت تعني الكرامة، والانتماء، والحق في أن يكون للإنسان مكان يقف عليه دون أن يُنتزَع منه.

لم يعد الدفاع عنها دفاعًا عن محصول، بل عن معنى؛ ولهذا لم يعد السؤال: ماذا سنخسر؟ بل أصبح: ماذا سنكون إذا لم نقف؟

• الإنسان.. في لحظة الحقيقة:

في هذه اللحظة، ظهر الإنسان كما هو، لم يعد هناك مجال للتخفِّي خلف الكلمات، ولا للتردد الطويل، كل واحد أصبح أمام نفسه: هل يقف؟ أم ينسحب؟ هل يتمسك؟ أم يترك؟

لم تكن الإجابات سهلة، لكنها كانت حاسمة، ومن اختار أن يقف لم يفعل ذلك لأنه لا يخاف؛ بل لأنه رأى أن ما يدافع عنه يستحق.

• محمد أبو سويلم.. في معناه:

لم يكن محمد أبو سويلم بطلًا بالمعنى التقليدي، لكنه كان تجسيدًا لما يمكن أن يكون عليه الإنسان حين يصدِّق مع نفسه، لم يكن يتكلم كثيرًا، ولم يسعَ إلى دور، لكن موقفه جعله في موقع التأثير.

كان يمثل الفلاح الذي لا يملك إلا أرضه، لكنه لا يرى نفسه ضعيفًا، وكان موقفه رسالة صامتة: أن الإنسان قد يكون بسيطًا في حياته، لكنه عميق في اختياره.

لمحة

• البطولة ليست في الصوت المرتفع، بل في الثبات حين تشتد اللحظة.

لم تنتهِ الحكاية بانتصار واضح، ولم تُحسَم الأمور بطريقة بسيطة، لكن ما حدث كان أعمق من ذلك: فقد تغيَّر الفلاح، وتغيَّر معنى الأرض في داخله.

لم يعد يرى نفسه كما كان، ولم تعد الأرض مجرد جزء من حياته، بل صارت تعبيرًا عنه. ومع هذا التغير، لم يعد الصراع مجرد حدث، بل تجربة تركت أثرها.

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكر

تتبَّع حضور الأرض في حياة الفلاحين.. كيف ظهرت في البداية، ثم كيف تحوَّلت إلى ما هو أعمق من مجرد مصدر للرزق؟ ما المواقف التي كشفت لك عن شدة ارتباط الفلاحين بأرضهم؟

• ثانيًا: أتأمل

لماذا يشعر الإنسان أن بعض الأشياء جزء منه، لا مجرد شيء يملكه؟

متى تصبح الأرض – أو أي شيء في حياتنا – رمزًا للكرامة والانتماء؟

• ثالثًا: أناقش

هل كان تمسُّك الفلاحين بأرضهم هو الخيار الوحيد أمامهم، أم كانت هناك بدائل أخرى ممكنة؟ وضِّح رأيك.

في رأيك، هل يمكن للإنسان أن يتخلى عن أرضه أو جذوره دون أن يفقد جزءًا من نفسه؟

• رابعًا: أربط بحياتي

ما الشيء في حياتك الذي تشعر أنه يمثل لك «أرضك» التي تنتمي إليها؟ ولماذا؟ هل مررْت بموقف شعرت فيه بأنك تدافع عن شيء مهم بالنسبة لك؟ ماذا تعلمت من هذا الموقف؟

• خامسًا: أطبق

تخيَّل أنك واحد من أهل القرية، ووجدت نفسك أمام قرار صعب يتعلق بأرضك..

اكتب في ثلاثة أو أربعة أسطر ما الذي ستختاره، موضحًا سبب قرارك، وما الذي يعنيه هذا الاختيار بالنسبة لك.

• سادسًا: أوظف

تمسُّك الشخصيات بما تؤمن به رغم ما تواجهه من صعوبات وضِّح ذلك في ضوء دراستك لكل من (كفاح طِيبة) و(الأرض).

شمس وليل
محمود تيمور

رحلة إلى بلاد الشمس في منتصف الليل ... واكتشاف للإنسان والمكان

في بيت يصنع المعرفة

وُلِد محمود أحمد تيمور في القاهرة عام ١٨٩٤، ونشأ في بيت ارتبط بالعلم والأدب، كان والده أحمد تيمور باشا عالمًا واسع الثقافة، حمَع الكتب والمخطوطات، واهتمَّ بتاريخ العربية وآدابها، فوحد الابن نفسه منذ الصِّغَر في مكتبة غنية، تحيط به كتب التراث والتاريخ واللغة، وكان شقيقه محمد تيمور من روَّاد القصة والمسرح، فأسهم حضوره القصير والمؤثِّر في توحيه محمود إلى عالم الأدب.

بيئة ثقافية

- نشأ محمود تيمور بين مكتبة أبيه وتجربة أخيه محمد، فاجتمَع له التراث العربي والاتصال بالأدب الحديث.

تلقَّى تعليمه في المدارس المِصرية، ثم التحقَ بمدرسة الزراعة العليا، لكنَّ مرضًا أصابه حالَ دون إتمام دراسته، ولم تكن فترة المرض انقطاعًا عن الحياة، فقد دفعَته إلى القراءة المتعمِّقة، ثم سافَر إلى أوروبا للعلاج، فرأى مجتمعات جديدة واتصَل بآدابها، وهناك اتسعتْ رؤيته للقصة، وتعرَّف إلى أعمال عددٍ من الكُتَّاب الأوروبيين، وفي مقدِّمتهم أنطون تشيخوف الذي لفتَ نظره إلى قيمة اللحظة الإنسانية والشخصية العادية.

من العامِّية إلى الفُصحى

بدأ تيمور كتابة بعض قصصه بالعامِّية، متأثرًا بالحوار اليومي وحياة الناس، ثم اتجَه إلى الفصحى وأعاد صياغة جانِب من أعماله بها، وكان هذا التحول جزءًا من بحْثِه عن لغة قادرة على الجمع بين البساطة الأدبية وسلامة التعبير، فلا تنفصل عن الناس ولا تَفقِد فصاحتها، وصار من أبرز من أسهموا في ترسيخ فن القصة القصيرة في الأدب العربي الحديث.

اهتمَّ بالشخصيات التي تمرُّ في الحياة دون ضجيج: (الفلاح، والموظف، والخادم، والفنان، والمرأة) التي تُحاصِرها التقاليد. ولم ينظر إليهم من الخارج، بل حاوَل أن يدخل إلى دوافعهم ومخاوفهم، وأن يقدِّمهم في مواقف تكشف ما تُخفِيه النفوس.

وقد جمَع في قصصه بين دقَّة المُلاحَظة والعطف على الإنسان، فلم يجعل الشخصية مثالًا أخلاقيًّا مجرَّدًا، بل

كائنًا يُخطئ ويتردَّد ويَحلُم، ومن هذه العين القصصية نفسها نظر إلى الذين قابَلهم في أسفاره؛ فكلُّ عامِل أو فنان أو مُضِيفة في القطار يمكن أن يصبح مدخلًا إلى فهْم المجتمَع.

الرحلة طريق إلى المعرفة

لم يقتصر أدب محمود تيمور على القصة، فقد كتَب المسرحية والرواية والدراسة اللغوية وأدب الرحلات، وكانت الرحلة عنده أكثر من انتقال بين المدن؛ إنها فرصة للمُلاحَظة والمُقارَنة واختبار الأفكار، ينظر إلى العمارة والطبيعة ووسائل النقل، ثم ينتقل منها إلى أحوال الناس، ونظام المجتمع، والعلاقة بين التقدم والأخلاق.

أدب الرحلات: كتابة تجمَع وصْف الطريق والمكان والناس بتأملات الرحالة ومقارَناته؛ لذلك تمتزج فيها المعلومة بالصورة الأدبية.

أهمُّ كتُبه ومؤلَّفاته

من أبرز أعماله: (الشيخ جمعة)، و(عم متولي)، و(كل عام وأنتم بخير)، و(نداء المجهول)، و(سلوى في مهبِّ الريح)، و(كليوباترة في خان الخليلي)، و(أبو الهول يطير)، و(شفاء الرُّوح)، و(شمس وليل)، كما كتَب دراسات في القصة والمسرح ومشكلات اللغة العربية، واخْتِير عضوًا في مجمَع اللغة العربية، ونال تقديرًا واسعًا حتى وفاته عام ١٩٧٣.

موقع (شمس وليل) من تجرِبته

صدر (شمس وليل) في خمسينيات القرن العشرين، وسجَّل فيه تيمور رحلة صيفية إلى السويد، يبدأ من القاهرة، ثم يبلغ استكهولم وحُزُرها وقصورها ومتاحفها، قبل أن ينضمَّ إلى رحلة تستغرق ثمانية أيام في قطار أطلِق عليه (قطار الشمس)، يمضي القطار شمالًا في بلاد يقصر فيها الليل حتى تكاد الشمس تظلُّ ظاهرة في منتصفه.

فكر

- هل تكفي مشاهدة المكان لمعرفة أهله؟ اقرأ لتكتشف كيف ينتقل الرحَّالة من المنظر إلى فهم المجتمع؟

لا يكتب تيمور دليلًا سياحيًّا؛ فهو يُحوِّل ما يراه إلى صوَر من (اللون، والصوت، والحركة)، يتوقف أمام محطة مزيَّنة بالأزهار، أو نهر يَحمِل أخشاب الغابة، أو قرية تحتفل بالصيف، ثم يسأل عما وراء المشهد: كيف نظَّم الناس حياتهم؟ ماذا يمكن أن يتعلم وطنه؟ وأين ينبغي أن نتقدم دون أن نفقد قِيَمنا؟

ويظهر صوت المؤلف بوضوح في التعليق والدعابة والمناجاة، فهو يخاطِب النهر أو الشمس، ويسْخر من نفسه حين يتعب أو يُدعَى إلى طعام جديد قبل أن يهضم سابِقَه، ويعلن إعجابه أو تحفُّظه؛ لذلك لا نقرأ سجِلًّا محايدًا، بل نصاحِب إنسانًا له ذوقه وذاكرته وموقفه.

شمس وليل.. بداية الرحلة

• فكرة تُولَد في المطار:

لم يكن في خاطِري أن أسافر إلى بلاد شمس منتصف الليل، وُلدت الفكرة برفق يوم خرجتُ مع أسرتي إلى مطار القاهرة لنودِّع أحبَّاءَ مسافرين إلى الشمال، وكان أولئك الأحباء قد تركوا لدينا طفلًا عزيزًا على الأسرتين، ووعدَتْهم الأسرة أن تعيد الطفل إليهم بعد أشهُر، فلما أقبل الصيف صار الوعد رحلة.

أخرجت من خزانتي حُلَّة كنت قد خصَّصتها للسفر بالطائرة منذ رحلتي الأولى، كنت أتفاءل بها وأحسَبُها درعًا من مخاطِر الجو، مع علْمي أن ذلك وهمٌ، وراقبتُ نفسي ساخرًا: كيف يخضع الإنسان للأسطورة وهو يعرف بعقله أنها لا تدفع قدرًا؟ ورأيت في هذا الضعف شيئًا من طفولة البشر التي تخفِّف قسوة المجهول.

إضاءة

• يقوم الوصف عند تيمور على ثلاثة عناصر متكرِّرة: اللون، والصوت، والحركة؛ وبها يجعل المكان مشهدًا حيًّا.

تأمل

• يجمع الكاتب بين السخرية من تفاؤله بالحُلَّة والاعتراف بحاجة الإنسان إلى ما يُطمْئنه عند مواجَهة المجهول.

• من القاهرة إلى الشمال:

وفي المطار بدا لي الإنسان مزهوًّا بما صنع؛ طائرات تهبط وأخرى تصعد، وأضواء الأرض تتداخل مع نجوم السماء. أقلعتِ الطائرة السويدية، واجتازت بنا الليل نحو أوروبا، لم يكن الرحيل انتقالًا جغرافيًّا فقط؛ فقد أخذتُ أقارِن بين عالَم أغادِرُه وآخر أتَّجِه إليه، وبين ألفة الوطن وفضول المعرفة.

وصلنا إلى استكهولم، المدينة التي تنهض على جُزُر يحيط بها الماء، كان الصيف قد أطلق الضوء في الأفق ساعات طويلة، فاختلطت الحدود بين المساء والنهار، وهناك فهمتُ عنوان رحلتي: شمس لا تترك الليل يكتمل، وليل لا يملك من ظُلمتِه إلا القليل.

وكان الصغار الذين صَحِبوني جزءًا من بهجة الطريق، كنت أنظر إلى وجوههم فأستمدَّ منها الطمأنينة، وأراقب اندهاشهم بالأمكنة الجديدة، وبذلك تجاوَر في الرحلة ما راكمَتْه السنون ودهشة الطفل الذي يرى العالَم للمرة الأولى.

إضاءة

• بلاد شمس منتصف الليل: مناطق شمالية تطول فيها ساعات النهار صيفًا حتى تبقى الشمس ظاهرة أو يظلّ ضوءُها ممتدًّا قُرب منتصف الليل.

• مدينة من ماء وضوء:

رأيتُ استكهولم مدينة تتآلف فيها الجُزُر والجسور والمراكب، لم تكن المياه حاجزًا بين أجزائها، بل طريقًا يصل بعضها ببعض، ومن الزورق أخذَتِ الواجهات والحدائق والقصور تمرُّ أمام عيني كأن المدينة تعرض صفحاتها على مهل، كان الضوء الصيفي يسكب على الماء لونًا فضيًّا، وتتحرك الجزر الخضراء في امتداده كأنها سفن راسية.

• جزيرة الأحلام:

قصدنا جزيرة (جورجاردن) القريبة من قلب المدينة، فبدَت لي جديرةً باسم (جزيرة الأحلام)؛ غابات وحدائق وقصور ومتاحف، وممرَّات تتخلَّلها الأشجار، زرتُ قصر الأمير أوجين، الفنان الذي جعل من بيته وحديقته عالمًا للفن، ورأيت كيف يمكن للذوق أن يتجسَّد في كل نافذة وشجرة ولوحة.

وفي الجزيرة شاهدتُ متحفًا مفتوحًا جُمعت فيه بيوت قديمة من أقاليم السويد، وأعيد بناؤها بأثاثها وأدواتها، كان الماضي معروضًا في الهواء الطلق، لا محبوسًا في خزائن، رأيت الحرف والأزياء والحيوانات والبيوت، وأدركتُ أن التقدم لا يقتضي محو الذاكرة؛ فالمجتمع الحديث يستطيع أن يحفظ صورة أسلافه ويتيح للأجيال أن تراها.

كنت أنتقِل من إقليم إلى آخر بخطوات قليلة: بيت خشبي، وورشةُ حِرَفي، وأزياء تتبدَّل ألوانها، وحيوان جاء من بيئة بعيدة، لم تُعرَض الأشياء منفصلة عن حياتها، بل وُضعتْ في سياق يجعلها مفهومة، ولهذا شعَرتُ أن المتحف يروي حكاية شعب، لا قائمة من المقتنيات.

إضاءة

- مثلما يربطنا المتحف في الرواية بذاكرة الشخصيات، يعيد المتحف المصري الكبير صياغة علاقتنا بالماضي؛ ليجعل تاريخ أمَّتِنا واقعًا حيًّا يفيض بالحيوية. زيارتك للمتحف هي رحلة لاكتشاف الذات وتجديد الصلة بحضارة لا تموت. في المتحف المصري الكبير تجد التاريخ مجسدا بالصوت واللون والحركة ..زيارة المتحف الكبيرة تجربة تضيف إليك كثيرا

• مغامَرة على الأقدام:

مشيتُ في طرق الجزيرة طويلًا، أتوقف عند مشهد وأستأنف السير إلى آخر، كانت الرحلة تُقاس بالخطوات لا بالمسافات؛ فكلُّ خطوة تكشف تفصيلًا: تمثالًا، أو شُرفة، أو شجرة نادرة، أو لحنًا يخرج من مكان بعيد. ولم أكن أسابق الطريق، بل أترك للمكان وقتًا كي يظهر معناه.

• قصر الغرام:

ركِبْنا زورقًا إلى جزيرة يقوم فيها قصر (دروتنينغهولم) الملكي. شُيِّد القصر وسط طبيعة فاتنة، فشبَّهته بقصور أوروبا الكبرى، لكنني رأيتُ له شخصية خاصة صنعتْها المياه والغابات والهدوء. واستعدتُ حكاية المَلِكة التي اختارت الجزيرة لجمالها، فتحوَّل المكان في خيالي إلى مسرح للحب والذكرى، وصار عندي (قصر الغرام).

في الحجرات والأروقة تكلَّم الأثاث القديم، والصور، والتُّحَف، والستائر عن زمن مضى، لم أنظر إلى القديم باعتباره شيئًا ميتًا؛ فالآثار تردُّ الإنسان إلى من عاشوا قبله، وتجعله يسمع (نداء الزمن)، خرجتُ وأنا أحمِل من سيرة المكان أكثر مما حمَلت من أسماء الملوك.

• جزيرة الدفاع:

وفي جزيرة أخرى فاجأني سجن عابس وسط طبيعة مَرِحة، كان موقعها قد جعلها قديمًا موضعًا للدفاع، ثم تحوَّلتْ إلى قاعدة وسجن، أثارت المُفارَقة خيالي: ماء صافٍ وخُضرة من جهة، وأسوار وقيد من جهة أخرى، وهكذا

لا يكتفي أدب الرحلة بالجمال؛ فقد يكشف المكان طبقات من الحرب والخوف والسيطرة.

وقفتُ أمام تلك المُفارَقة متسائلًا كيف يحمل المكان وجهين متباعدين: وجهًا يدعو إلى النزهة، ووجهًا يذكِّر بالقيد، فالجغرافيا نفسها التي تمنح الجزيرة جمالها وعُزلَتها جعلتها صالحة للحراسة والدفاع، وفي هذا الانتقال من الظاهر إلى التاريخ اتسعتْ نظرتي.

• في صُحبة الأزهار:

إضاءة

• لا ينقُل الرحَّالة مظهرًا أجنبيًّا ليُقلِّده؛ بل يُحوِّله إلى سؤال عن حاجات مجتمَعه وإمكانات إصلاحه.

وكان أكثر ما يلفتني عناية السويديين بالأزهار، وحدْتُها في الحدائق والشُّرفات ومحطات القطار، حتى إن الانتظار في المحطة نفسه لا يخلو من جمال، وعرَفتُ أن الدولة تنفق على تزيين المحطات، فقارَنتُ بينها وبين محطات في وطني قد لا يجِدُ المسافر فيها مقعدًا مريحًا، لم تكن المُقارَنة ازدراءً لوطني، بل سؤالًا مؤلمًا: متى يصبح الجمال والنظام حزءًا من حق الإنسان اليومي؟

• خطوات في جامعة السويد:

إضاءة

• المقارنة النافعة لا تنتهي إلى الانبهار، بل تبدأ منه لتبحث في أسباب التقدم وإمكان الإفادة منه. «ما الذي يمكن أن نأخذه لبناء نهضتنا؟» تساؤل تطرحه الرواية ويُجيب عنه الواقع المصري اليوم! إن ما تشهده مصر من نهضة عمرانية وتنموية، وتوسُّع في شبكات الحماية الاجتماعية والخِدْمات الصحية، هو التجسيد العملي لارتياد طريق النهضة، تحويل للرؤى والأفكار إلى واقع ينعكس على جودة حياة المواطن وكرامته.

زرت مدينة أبسالا؛ حيث الجامعة العريقة والكاتدرائية والمكتبة.

رأيت العلم متصلًا بتاريخ المدينة، لا منعزلًا عنه، واستوقفني انتظام المؤسَّسات وحرْصُها على المعرفة، كما استوقفتني تلال قديمة تضمُّ رُفات ملوك من عصور الوثنية؛ فالمدينة تجمع بين آثار الماضي وحياة الحاضر.

ومن هذه المشاهد انتقلتُ إلى تأمُّل المجتمع كله، لاحظتُ انتشار التعليم والرعاية الصحية والضمان الاجتماعي، ورأيت أن الناس أقلُّ تعرُّضًا للفقر والجهل والمرض، ودعوت في نفسي إلى دراسة الأنظمة التي حققت ذلك، لا إلى الاكتفاء بالإعجاب، وكنت أسأل دائمًا: ما الذي يمكن أن نأخذه لبناء نهضتنا؟

• ثمانية أيام في قطار الشمس:

انضممتُ وأسرتي إلى رُفقة دولية في قطار سياحي سيقطع السويد في ثمانية أيام، كانت لكل أسرة مقصورة، وللطعام مواعيد، ولليوم برنامج من الزيارات والرحلات، وعلى الموائد وُضعت أعلام البلدان التي جاء منها المسافرون، فخفق أمامنا العَلَم المصري، وشعَرتُ أن المسافر يحمل وطنه معه ولو ابتعد عنه آلاف الأميال، لم يكن القطار وسيلة نقْل فحسب.

كان بيتًا يتحرك ومجتمعًا صغيرًا. أصوات متعددة، وعادات مختلفة، ومرح لا ينقطع. وفي الصباح يوقِظُنا لحْن

موسيقي رقيق، ثم يعلن القطار بداية يوم جديد. أما الليل، فكان يتراجع كلما اتجهنا شمالًا، حتى يصبح المساء ضوءًا ممتدًّا لا يستسلم للظلمة.

وتكفَّل المضيفون بتنظيم التفاصيل: الزيارات، والحافلات، والطعام، والأناشيد، والوقت الحر. وأدهشتني قدرتهم على جعل المسافة الطويلة خبرة متجدِّدة؛ فإذا هدأ منظر الطريق جاءت حكاية أو أغنية، وإذا توقَّف القطار انفتح باب إلى قرية أو مُتحف أو شلال.

مفتاح البناء

- قسّم تيمور رحلة القطار إلى ثمانية أيام؛ فصار الزمن خيطًا يجمع تنوُّع المدن والقرى والمناجم والغابات.

• المجتمع الصغير المتحرك:

دخلتُ مقصورتي فرأيتها بيتًا صغيرًا قد رُتبتْ أجزاؤه بحيث لا تُضيع شبرًا من المكان، سريران يُطْوَيان عند الحاجة، ونافذة تَعرِض الطريق عرضًا لا ينقطع، وممرٌّ تمضي فيه الوجوه القادمة من بلاد شتى. ولم تلبث الأسماء الغريبة أن صارت تحيات مألوفة؛ فهذا يفسح الطريق لآخر، وتلك تسأل عن مصر، وطفل يمدُّ رأسه من باب المقصورة ثم يفرُّ كأنه اقترف مغامَرة.

وفي عربة الطعام وجدتُ العَلَم المصري قائمًا بين أعلام الرفاق. شيء صغير من القماش، ولكنه جعل الوطن يجلس معي إلى المائدة. ولم تكن الأطباق تَعرِف الراحة؛ فما نكاد نفرُغ من طعام حتى نُدعَى إلى شراب أو وجبة أخرى. وقلت في نفسي: لعل قطار الشمس يريد أن يُثبِت أن المعدة تستطيع السفر أسرع من العجلات!

أما الصباح فله نغمٌ ينساب من مكبِّر الصوت. يوقظنا ولا يفزعنا، ثم يأتي صوت المرشد ببرنامج اليوم. وإذا تعبنا من الأسماء والمواعيد، تكفلت النافذة بما لا يحتاج إلى ترجمان: غابة تركض إلى الوراء، وبُحَيرة تلمع، وبيت أحمر وحيد، وسحابة كأنها ترافِق القطار.

خريطة الرحلة:

اليومان (الأول والثاني): التاريخ والقرية والفن؛ الثالث: جافله والحياة الاجتماعية؛ الرابع: الزجاج والدائرة القطبية؛ الخامس: أرض السامي ومدارسهم؛ السادس: كيرونا، مدينة الحديد، وشمس منتصف الليل؛ السابع: القرية السامية وفِرَق المغامرين؛ الثامن: الخشب والمائدة الأخيرة.

• اليوم الأول: بين التاريخ والصناعة

تحرَّك القطار بين الحقول والغابات، وتوقَّف عند أبسالا وتلال ملوكها القدماء، ثم بلغ فالون التي اشتهرت بمناجم النحاس. رأيت آثار المناجم والآلات القديمة، ثم رأيت المدينة وقد انتقلت إلى صناعات أحدث. كان المكان يقدِّم درسًا صامتًا: قد ينضُب مورد من الأرض، ولكن مورد العقل لا ينضُب إذا أحسن الناس استعماله.

وفي المحطة استقبلتني الأزهار والنظافة. قلتُ في نفسي: إن القوم لم يرضوا للانتظار أن يكون وقتًا ضائعًا، فزيَّنوه بما يريح العين ويُؤنِس النفس. وتذكرتُ محطات عندنا يفتش فيها المسافر أولًا عن مقعد، ثم يعدُّ الراحة بعد ذلك ضربًا من الترف.

تعلم

- المحطة المزيَّنة بالأزهار (ملاحظة حسية). والقول: «إن الجمال يرفع كرامة المسافر» (استنتاج). أما المقارَنة بمحطات الوطن فهي حكم حضاري يحتاج إلى شواهد متعددة. بهذا الفصل بين المستويات نتعلم أن نقرأ الرحلة قراءة ناقدة.

وعند بحيرة اجتمع الرفاق حول الطعام، ارتفعت الأغاني، أما أنا فظللتُ مراقبًا، وأبتسِم لما أجِدُ بيننا من اختلاف. لم يمنعني تحفُّظي أن أشاركهم البهجة، فقد تعلمتُ أن الصحبة لا تشترط أن تتشابه العادات.

• اليوم الثاني: القرية والفنان

أيقظنا لحن الموسيقى، ثم حملتْنا الحافلة إلى قرية صيفية تحيط بها المراعي. استقبلنا أهلها بالموسيقى والثياب الوطنية، وقدَّموا طعام الريف، ثم اجتمعوا في ساحة الرقص احتفالًا بالصيف. لم يكن الاحتفال عرضًا للسائح وحده؛ أحسستُ أن القرية تستعيد نفسها بالغناء، وأن الزي القديم يخرج من الخزانة ليقول: «إن الحاضر لا يخجل من آبائه».

وكان الصغار أسرع منَّا إلى فهم المشهد؛ أخذَتْهم الألوان والحركة، أما نحن الكبار فوقفنا نبحث عن تفسير لكل شيء. وتساءلت: أليس الطفل أصدق رحَّالة؛ لأنه يمنح المنظر قلْبَه قبل أن يُثقِلَه بالشرح؟

في دار أندرس زورن:

الفن والمسافة:

- القرب يكشف مادة اللون، والبعد يكشف الصورة. ويمكن تطبيق الفكرة على قراءة الأشخاص والأحداث: التفصيل ضروري، لكن الرؤية الكلية ضرورية أيضًا.

دخلنا دار الرسام أندرس زورن ومتحفه في (مورا). كان البيت ريفيَّ الأصل، ولكن يد الفن هذَّبته من غير أن تمحو بساطته. أدوات الرسام وثيابه ومَرسَمه باقية كأن صاحبها خرج منذ لحظة. وفي الضوء الهادئ بدَتِ اللوحات نوافذ أخرى لا تطل على الحديقة، بل على حياة كاملة.

وقفتُ أمام صورة رسم فيها زورن نفسه في أَوْج قوَّته: عين نافذة، وكتف ثابت، وثقة لا تحتاج إلى إعلان. اقتربت من بعض لوحاته فرأيت بقعًا وخطوطًا متفرقة، ثم ابتعدت خطوات فإذا الفوضى الظاهرة تنتظم، وإذا الوجه والماء والحركة تُولَد أمامي. قلت: ما أكثر الحقائق التي نظلمها لأننا نلصق أنوفنا بها! أحيانًا لا نرى الشيء إلا إذا منحناه مسافة.

وعرفتُ أن زورن بدأ من بيئة متواضعة، ثم حملته الموهبة والعمل إلى العالم. لم أخرج من المرسم بصورة الفنان وحدها؛ خرجت بصورة المجتمع الذي حفظ داره وأدواته، وجعل نجاح الفرد ذاكرة مشتركة.

• اليوم الثالث: عبور الدائرة القطبية ومشهد شمس منتصف الليل

واصَل القطار اندفاعه مخترقًا مناطق الشمال السويدي باتِّجاه الشمال القطبي؛ حيث يطول النهار ويسود ضوء الشمس الدائم. ورغم الدعوات الترفيهية داخل القطار لمشاهدة السينما، آثَر الكاتب ملازمة النافذة ليتأمَّل الطبيعة البِكْر؛ مشاهد الغابات الممتدَّة والبحيرات المفعمة بالبراءة والرهبة.

لقاء «ملك اللاب» وجيش البعوض:

عند وصول القطار إلى خط المنطقة القطبية، نزل الركاب للاحتفال بهذه اللحظة الجغرافية؛ فاستقبَلهم رجُل فارع القامة يرتدي ملابس تقليدية ولحية مستعارة؛ ليؤدِّي دَوْر «ملك اللاب» ومعه حاشيته، في مسرحية طريفة لتقديم الولاء والترحيب. لكن هذا الاحتفال لم يخلُ من هجوم كاسح لأفواج من البعوض والجراد القطبي الضخم الصامت.

فلسفة الحدود وزيارة جاليڤار:

أرسل المسافرون بطاقات بريدية لأهلهم تباهيًا باقتحام مملكة الصقيع، لتتحرك في نفس الكاتب خواطر عن الخُدَع والأوهام الجغرافية؛ فخَطُّ القطب ليس سوى خط وهمي رسَمه العلماء. ثم وصَل القطار إلى مدينة «جاليڤار» الصناعية الغنيَّة بمناجم الحديد، وهناك زار الكاتب كنيسة عصرية بسيطة خالية من مظاهر الرهبة والتماثيل الثقيلة؛ حيث تُزيِّن جدرانها صُوَر شجر التفاح كرَمْز لبساطة رُوح الدِّين وتجدُّده.

إضاءة

- ظاهرة شمس منتصف الليل: ظاهرة كونية تحدث في المناطق الواقعة شمال الدائرة القطبية الشمالية خلال فصل الصيف؛ حيثُ تظَلُّ الشمس أفقية ومُعلَّقة في السماء طَوال ٢٤ ساعة دون غروب؛ مما يقلِب مفاهيم تعاقُب الليل والنهار المألوفة.

مناجاة شمس منتصف الليل:

في وقت متأخِّر من الليل، صَعِد الكاتب بالحافلة عبر طريق جبلي وَعِر إلى قمَّة الجبل؛ ليشهد ظاهرة شمس منتصف الليل العجيبة. وهناك وقَف في خشوع يتأمَّل القرص المتوهِّج الأرجواني الذي يستمر في الشروق والسطوع دون أن يغيب في أعماق البحر أو الظلام، فناجى الشمس باعتبارها عروس الوضوح ومصدر الحياة. واختَتم يومه بتأمُّلات إيمانية وفكرية حول كيفية صيام شهر رمضان في هذه الأصقاع التي لا يغيب فيها النهار.

• اليوم الرابع: شلال بورجس وروائع الطبيعة القطبية

استأنَف القطار رحلته صباحًا، ثم نقلت الحافلة المسافرين إلى مدينة «بورجس» المعروفة بمدينة الشلال؛ حيث توجد محطَّة ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية. بدأت الزيارة بمحاضرة توضيحية من مندوب هيئة العمال حول كيفية

استغلال مساقط المياه الشديدة للتحكُّم في الشلال وتوليد الكهرباء.

بيوت العمال والقوة الترويمية للصناعة:

طاف الزوار في المدينة العمالية المصمَّمة بطِراز خشبي مَرِن يسهُل تفكيكه ونقله مع العمال فور انتهاء مشاريع التنظيم، أشبه بخيام البدو. ثم ساروا عبر مسلك صخري صُلْب ومبتلٍّ نحو الشلال العظيم للوقوف على الجسر المقيم لحصر المياه؛ ورأى الكاتب كيف تفرض الصناعة سيطرتها على الطبيعة الهوجاء، وتُخضع زئير المياه الثائرة لمنفعة الإنسان وعمرانه.

عزلة الشمال ومواطن «اللاب»:

استقل المسافرون القطار مجددًا عبر بطاح وأراضٍ معشوشبة ومناقع تنتشر فيها الوحشة والبِرَك، وتغيب عنها أي مظاهر للحياة البشرية أو العمران، حتى خُيِّل للكاتب أنه يجتاز مواطن الأقزام أو أسرار أساطير السويد. ومع ازدياد تجهُّم الجو وتساقط الصقيع، قطَع القطار مسافة ١٥٠٠ كيلومتر عن إستوكهلم، فبدأت الطبيعة تتبدَّل بظهور الجبال المكلَّلة بالثلوج والبحيرات الساحرة التي تتوارى وتَظهر بين الفِجاج.

استراحة ريجوركولدن والشتاء القطبي:

توقف القطار في محطة «ريجوركولدن»، فانتقل الكاتب إلى فندق فخم تحيط به الجبال وتُزيِّن البهو نوافذ واسعة مصمَّمة كلوحات زيتية طبيعية تُطِلُّ على البُحيرة والسُّفوح. وهناك جلس يستمتع باحتساء الشاي والموسيقى أمام شمس الليل المنتصفة، قبل أن يعود للقطار ليجد مقياس الحرارة يشير إلى درجتين فوق الصفر؛ فيستقبل برودة الشتاء القطبية بدهشة وإعجاب وانقلاب للمفاهيم المألوفة.

إضاءة

- قوة الصناعة والطبيعة: تُجسِّد رحلة اليوم الرابع التباين الثنائي بين هيبة الطبيعة البِكْر الشديدة البرودة، وبين قدرة العقل البشري والهندسة الحديثة على طَبْع قُوَى الطبيعة الجبَّارة (كالشلالات) وتحويلها إلى طاقة نافعة لخدمة المجتمعات.

• اليوم الخامس: إلى أرض الشعب السامي

صحَونا على يوم بدا كأنه تدريب من تدريبات الكشافة. خرجنا من القطار ومعنا ما يَلزَمنا من طعام وشراب، ومضينا إلى بحيرة في بقعة شمالية صغيرة. كان الطريق مبلَّلًا، والريح حادَّة، والبعوض أكثر نشاطًا من السياح. وكلما حاول أحدنا أن يبدو بطلًا، أعادته الأرض الليِّنة إلى قدَرِه.

ركِبْنا زورقًا إلى الضِّفة الأخرى، ثم سِرْنا في ممرات لا تطمئن إليها القدم. كان بعض الرفاق يسبقون، وبعضهم يتوقف ليلتقط أنفاسه، وأنا بين الفريقين أوَازِن بين حب المعرفة وحب السلامة. وعند نار صغيرة تجمعنا، صار الدفء نعمة محسوسة لا كلمة عابرة.

وفي محطة قطبية صغيرة استقبلتْنا فتاة ريفية بشعر يلمع في الضَّوء، تحمل القهوة والكعك للركاب. كان منظرها البسيط أدفأ من برد المكان؛ ففي آخر الطريق ينتظر المسافر أحيانًا وجْهَ واحدٍ، فيشعر أن البلاد كلها قالت له: «أهلًا».

ما رأيناه وما سمعناه:

رأينا مساكن وأدوات تلائم حياة التنقل والبرد، وسَمِعنا من المرشدين كيف ارتبطت معيشة السامي قديمًا بالرنة؛ منها الطعام والكساء ووسيلة الحركة، وترسُم هجرتها إيقاع العام. ولم أشاهد كل ما رُوي لي؛ لذلك بقيتُ أميِّز في ذهني بين العين التي ترى والأذن التي تنقُل.

وحدثونا، وَفْق نظم التعليم السائدة زمن الرحلة، عن مدارس خصصتها الدولة لأطفال السامي، وعن الرعاية الصحية والاجتماعية التي تصِلُ إلى جماعاتهم المتنقلة. وبقي السؤال حاضرًا: كيف يمنح التعليم الطفل أدوات العصر من غير أن يقتلع نمط حياة أسرته؟

وكان الاسم الذي تستعمله كتب عصره (اللاب). أما اليوم فالأدق أن نقول: «الشعب السامي(*)». ولا ينبغي أن نحوِّل اختلافهم إلى فرجة غريبة؛ فالثياب والمسكن والعمل استجابات لبيئة قطبية شديدة، كما تستجيب بيوت الصحراء وملابسها لحرارتها ورياحها.

إضاءة

• يَرِد اسم (اللاب) في الكتاب؛ لأنه الاسم الشائع زمن المؤلف. وتستخدم هذه المعالجة اسم (السامي) احترامًا لتسميتهم المُعاصِرة، مع عرض أحكام الكاتب بوصفها ابنة عصرها.

الرنة والحزاز:

حدَّثونا عن الرنة التي تقطع المسافات، وعن الحزاز الذي تبحث عنه تحت الثلج لتتخذه غذاءً. بدَت العلاقة بين الإنسان والحيوان والنبات شبكة واحدة؛ فإذا اختلَّ طرَفٌ منها أصاب الخلل سائرها. لم تعُدِ الطبيعة خلفية جميلة للصورة، بل نظام حياة كامل.

• اليوم السادس: كيرونا مدينة الحديد

في الصباح بلغنا نارفيك في أقصى الشمال، والضوء قائم كأنه لم يعرف الليل. بدَتِ المدينة مرتبطة بالمنجم ارتباط الجسد بالقلب؛ فالطرق والبيوت وأوْجُه العمل كلها تدور حول الحديد الكامن في الجبل.

(*) شعب سامي:

هم السكان الأصليون لشمال أوروبا، ويتركزون في منطقة «سابمي» التي تشمل شمال السويد والنرويج وفنلندا... ويُعرفون أيضًا بـ(اللابيون).

مدينة أقامها الحديد:

تأمل

- يربط الكاتب بين المورد والعمل والمعرفة: المنجم لا يصير ثروة إلا بالتنظيم، والثروة لا تصير تقدمًا إلا إذا خدمت الإنسان.

بدت نارفيك مدينة أقامها الحديد؛ تحيط بها الآلات والمنشآت والمساكن التي نشأت لخدمة التعدين. شاهدنا المدينة من ظاهرها، وسمعنا شرحًا لكيفية استخراج الخام ونقله وتهيئته، فبدا الجبل قوة كامنة أيقظها العمل المنظم.

كل مرحلة تعتمد على التي قبلها؛ فلا بطولة لفرد واحد، بل تعاون بين العامل والمهندس والآلة. وتذكرْتُ بلادنا وما في أرضها من ثروات، وقلت: إن المعدن المدفون لا يغني شعبًا حتى توقِظَه المعرفة. وما قيمة تقدُّم يربَح في دفاتر الحساب، ثم يخسر الإنسان والأرض؟

ومن ظاهر المدينة بدت البيوت والمنشآت شاهدةً على أن حياة الناس كلها تدور حول الجبل وما يختزنه من خام؛ فالحديد هنا ليس موردًا بعيدًا، بل أساس العمل والعمران.

ثم حمَلتْنا الحافلة في طريق تحفه الجبال والبحيرات. كان الجمال شديدًا حتى يخفي الخطر لحظة، ثم يأتي منعطف ضيق فيُعيد القلوب إلى أماكنها. تقلب الجو بين مطر وبرد وانفراج، وكأن الجبل يبدل مزاجه أمام الضيوف.

شمس منتصف الليل:

إضاءة

- يبني الكاتب صورة شمس منتصف الليل من الزمن واللون والحركة والمناجاة؛ ولذلك يحمل هذا المشهد دلالة الكتاب كلها.

ظلَّ الرفاق يترقبون الشمس بين المطر والغيوم. ثم انقشع الجو، فظهرتْ قريبة من الأفق، تمس حافته ولا تغيب، قبل أن تعود فترتفع في ضوء الصباح. عندئذ صار الليل اسمًا في الساعة لا ظلمة في السماء.

قلتُ للشمس في سرِّي: «أما آن لك أن تستريحي؟» فكأنها أجابتني بأن مدَّت فوق الماء طريقًا ذهبيًّا. وكان الصغار أهدأ منَّا؛ فالساعة عندهم لعبة، أما الضوء فهو الحقيقة. هناك صار عنوان (شمس وليل) مشهدًا حيًّا، واجتمع النقيضان أمام العين.

• اليوم السابع: القرية السامية

ثلاثة طُرق للمغامرة:

استقرَّ القطار في مدينة كيرونا، وانقسم الركاب إلى فِرَق: مغامرون يقصدون الجبل والمخيَّمات، وفريق يزور مواضع السامي الأقرب، وآخر يختار طريقًا أقل مشقة. آثرتُ الطريق الذي يترك في الساقين بقية للعودة، ثم استعددتُ لسخرية أبطال الجبل إن عادوا سالمين.

بين الرواية والمشاهَدة:

في الطريق سمعتُ حكايات عن معتقَدات ووسائل علاج شعبية نسَبَها بعض المرشدين إلى جماعات سامية؛ حكايات تتصل بالأرواح والطبيعة، ووصفات تستمدُّ مادتها من الشجر والحيوان. وأحسست قربًا عجيبًا من حكايات سمعتُها في الريف المصري؛ تختلف الأسماء والبيئات، ولكن الإنسان في خوفه من المرض يبحث عن تفسير ودواء حيثما كان.

غير أن التشابه لا يبيح لنا السخرية ولا التعميم. فما يراه مسافر في زيارة قصيرة لا يحيط بحياة شعب كامل؛ لذلك أسجِّل ما قيل، وأضع إلى جواره سؤالًا: أهو اعتقاد باقٍ عند الجميع، أم أثر من الماضي تحتفظ به الحكاية؟

وقد تخدع الرحَّالةَ لقطةٌ عابرة، فيحسب الجزء صورةَ الكل. فصِدْق المُشاهَدة لا يَعصِم من ضيق الزاوية، ولا سيَّما حين يكتب الإنسان عن ثقافة لا يعرف لغتها ولا تاريخها إلا بقدر محدود.

مرآتان بعيدتان:

قادتني الحكايات الشعبية إلى مصر. رأيت البعد الجغرافي يضيق في اللحظة التي يتشابه فيها رجاءُ أمٍّ لابنها المريض مع رجاء أمٍّ في قرية على النيل. وهنا شعَرتُ أن الرحلة تقرِّب بين الناس بقدر ما تكشف اختلاف أوطانهم.

ومع ذلك بقي لكل بيئة لغتها: الثلج والرنة والحزاز في الشمال، والنهر والنخلة والحقل في الجنوب. الإنسان واحد في حاجاته الكبرى، متنوِّع في الصور التي يصوغ بها خبرته.

عودة أبطال الجبل:

عاد الذين قصدوا الجبل بعد نحو خمس ساعات، مُتعَبين من الطريق، يحملون صورًا التقطوها وآثار المشقة بادية عليهم. أما الذين اختاروا الطريق الأيسر فاستقبلوهم بشيء من الإعجاب وكثير من المزاح.

تأخَّر القطار، واضطرَّ بعض الركاب إلى النوم على المقاعد. كان ذلك ختامًا مناسبًا ليوم تعدَّدت فيه الطرق: لكل مسافر مغامرته، وليس أشجع الناس من يختار الطريق الأصعب دائمًا، بل من يعرف قدرته ويُحسن الاختيار.

اختلاف المسارات: تتيح الرحلة أكثر من طريق، فتجعل الاختيار جزءًا من خبرة المسافر، وتكشف اختلاف الطبائع أمام المشقة والمجهول.

• اليوم الثامن: يوم الخشب

طَرَق المرشد الباب وبيده برنامج اليوم الأخير. تمنيتُ لو يترك لنا الصباح بقيةً من النوم، ثم تذكرتُ أن القطار لا يرحم المتردِّد: موعد جديد، وطريق جديد، وطعام ينتظر من يثبت أن معدته ما زالت صالحة للسفر.

تتبعْنا رحلة الخشب من الغابة إلى النهر. كانت الجذوع تطفو في الماء، ويحمل كلُّ جذع منها علامة صاحبه،

وتدخل مع آلاف غيرها في تيار واحد. رأيت النهر يحمل نتاج الغابة كما يحمل الأب أبناءه، ثم يدفعه إلى مواضع الفرز.

هناك تتحرَّك الأخشاب وتتباعد وَفْق علاماتها. يد تراقِب، وآلة تدفع، وأصوات الجذوع تتعاقب حين يصطدم بعضها ببعض، ورائحة الخشب الطازج تنبعث من الألواح عند المناشير. لا يضيع جِذْع بين الآلاف؛ فالنظام والأمانة يحفظان حق صاحبه.

ومررْنا بشلال منطلق يملأ السمع والبصر، ثم بموضع آخر نُظمت فيه قوة الماء لتدخل في العمل. بدت لي المقارَنة صعبة: جمال الماء حين يجري حرًّا، ومنفعته حين يتحول إلى طاقة. ولم يكن السؤال: أي الصورتين نمحو؟ بل كيف ننتفع من غير أن نبدِّد الجمال والتوازن؟

من الجذع إلى المنتج:

تمرُّ الأخشاب بمراحل تبدأ بقطع الأشجار ونقلها، ثم فرزها ونشرها وشحنها. بدا كلُّ عامِل حلقة في سلسلة؛ فإذا تراخى واحد تعطلت الحركة كلها. ولم أرَ في التنظيم جفافًا، بل صورة من صور احترام جهد الإنسان وماله.

لكن الغابة ليست مخزنًا لا ينفد ما فيه. فإذا أخذ الناس منها ولم يعيدوا زراعتها انقطع النهر عن حمْل الجذوع في المستقبل. وهنا يلتقي الاقتصاد بالأخلاق: (الانتفاع حق، والتجديد مسئولية).

قارن

- قارِن بين استثمار الخشب واستثمار الماء والحديد. ما الشروط التي تجعل الانتفاع بالطبيعة مستدامًا؟

ما الذي تكشفه الرحلة؟

تكشف الرحلة عن إعجاب بالنظام والتعليم والرعاية واستثمار الثروة، لكنها تكشف كذلك عينًا مصرية تَزِن ما ترى بثقافتها. وبعض أحكام الكاتب يعكس رُوح عصره أكثر مما يصف المجتمع كله؛ لذلك نقرأ صِدْقَه وحدوده معًا.

وليست السويد في الكتاب نموذجًا كاملًا، ولا مِصر مجرَّد طرَف في مقارَنة خاسرة. وهكذا عادت الرحلة تثير في النفس أسئلة لا تنتهي بانتهاء الطريق: كيف نحفظ التراث ونحن نتقدم؟ وكيف نستثمر الماء والغابة والمعدن من غير إفساد؟ وكيف نعود من الطريق بعين أوسع؟

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكّر

١. ما السبب العائلي الذي أدى إلى الرحلة؟ وكيف اتسعت غايته بعد الوصول؟

٢. رتِّب المحطات الآتية زمنيًّا: (مورا - كيرونا - مصنع الزجاج - أرض السامي - يوم الخشب).

٣. ما الفرق بين ما شاهده الكاتب في أرض السامي وما سَمِعه من المرشدين؟

• ثانيًا: أتأمَّل

١. حلِّل صورة شمس منتصف الليل من حيث اللون والحركة والزمن والمناجاة.

٢. كيف صنعت الدعابة شخصية الرحَّالة؟ استدِلَّ بموقف الطعام أو النوم أو الزي.

٣. قارِن بين لوحة زورن التي تحتاج إلى مسافة والرحلة التي تحتاج إلى نظرة كلية.

٤. تتبعْ حضور الوطن في الرحلة: العلم المصري، والمقارَنات، والأسئلة الإصلاحية.

• ثالثًا: أناقش

١. هل كانت مقارَنة الكاتب بين السويد ومصر دعوة إلى الإصلاح أم انبهارًا بالآخر؟ ادْعَم رأيك بموقفين من العمل.

٢. وازِن بين الشلال الحر والشلال المنظَّم. أيهما رجَّح الكاتب؟ وهل ترك المسألة مفتوحة؟

٣. كيف استخدَم تيمور الموقف الأخير على المائدة ليكشف اختلاف الطبائع والعادات بالدعابة؟

٤. اختر حكمًا واحدًا من حديث الكاتب عن السامي أو العادات الاجتماعية، وبيِّن كيف نَعرِضه باحترام ونقد معًا.

• رابعًا: أربط بحياتي

١. اختر موردًا طبيعيًّا في بلدك، واقترِحْ طريقة للانتفاع به مع الحفاظ عليه.

٢. ما مظهر النظام أو الجمال الذي تتمنى تطويره في مدرستك؟ اقترِحْ خطوة قابلة للتنفيذ.

٣. صِفْ موقفًا تعلمتَ فيه من شخص مختلف عنك من غير أن تتخلَّى عن قيمة تُؤمِن بها.

• خامسًا: أطبّق

اختر مهمة واحدة. اكتب في المهامِّ الثلاث الأولى من (١٨٠ إلى ٢٢٠) كلمة:

١. اكتب يومًا تاسعًا متخيلًا من رحلة قطار الشمس، محافظًا على ضمير المتكلم والدعابة والوصف الحسي.

٢. صُغْ رسالة من محمود تيمور إلى طالب مصري يشرح فيها ما تعلَّمه من المَنْجم أو مصنع الزجاج.

٣. اكتب مشهد شمس منتصف الليل مستخدمًا اللون والصوت والحركة من غير شرح علمي مباشر.

٤. صمِّم بطاقة لرحلة إلى مكان مصري في (١٠٠ إلى ١٢٠) كلمة، تتضمن عنوانًا وصورة مقترحة، وتجمَع بين الجمال الطبيعي والمعرفة الحضارية.

مهمة تطبيق جماعية اختيارية (٢٠ دقيقة): تقسم المجموعة الأدوار: (رحَّالة، ومُرشِد، وعامل منْجم، وناقد بيئي)، يقدمون حوارًا قصيرًا حول معنى التقدم.

• سادسًا: أوظِّف

أكثر مشهد جعلني أشعر أنني أرافق الرحَّالة: .....

فكرة يمكن أن نستفيد منها في محتمعنا: .....

حُكم للكاتب أوافقه أو أختلف معه: .....

أحدِّد رأيي بوضوح:	أتمكَّن ☐	أحتاج تدريبًا ☐
أستدلُّ بموقفين من النص:	أتمكَّن ☐	أحتاج تدريبًا ☐
أشرح صلة الدليل برأيي:	أتمكَّن ☐	أحتاج تدريبًا ☐

العَبرَات
مصطفى لطفي المنفلوطي

«العبرات» ومسيرة أديب الوجدان مصطفى لطفي المنفلوطي

نبذة عن حياته ونشأته

اسمه «مصطفى لطفي المنفلوطي»، أديب وكاتب مصري نابغ، وصاحب واحد من أرق وأعذب الأساليب في النثر العربي الحديث. وُلد في مدينة منفلوط بصعيد مصر أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٦م)، ونشأ في أسرة كريمة متصلة بالعلم، تلقى تعليمه في الأزهر الشريف، حيث تتلمذ على يد الإمام محمد عبده وتأثر بدعوته للإصلاح. لم يكتفِ بعلوم الأزهر، بل انفتح على الأدبين القديم والحديث؛ فابتكر لنفسه أسلوبًا «إنشائيًا» صافيًا، يبتعد عن التعقيد والصنعة، ويلامس شغاف القلوب مباشرة، جاعلًا من قلمه صوتًا للمظلومين والمكروبين، وتُوفِّي عام ١٩٢٤م.

المحطات المهمة في حياته

- **التتلمذ وصناعة الوعي:**

التحق بالأزهر وتأثر بقوة بأفكار الإمام محمد عبده التجديدية، ليثبت للشباب أن اختيار المعلم والقدوة الصحيحة هو الخطوة الأهم لتشكيل العقل وتوجيه الطاقات نحو البناء.

- **التعريب المبدع (الانفتاح بالأصالة):**

استعان بمن يترجم له روائع الأدب الغربي ليصيغها ببيانه العربي الساحر في روايات كـ«مجدولين»؛ ليؤكد أن الإبداع الحقيقي ينفتح على ثقافات العالم لكن بروح تحتفظ بهويتها وأصالتها.

- **تقدير الزعماء (التكريم العملي):**

نال إعجاب وثقة الزعيم سعد زغلول بفضل قوة قلمه وصدق تعبيره، علَّمَنا أن الكلمة الصادقة والمؤثرة تفرض احترامها وتصنع لصاحبها أرفع مكانة.

التحديات التي واجهها في حياته:

• تحدي الجمود الفكري (الصراع بين القديم والحديث):

اصطدم المنفلوطي في بداياته بجمود بعض المناهج التقليدية، لكنه لم يستسلم لهذا الانغلاق، بل انفتح على الأدب المعاصر ونجح ببراعة في المزج بين رصانة وقوة اللغة العربية وبين أساليب التعبير الحديثة؛ ليثبت أن التمسك بالأصالة والهوية لا يمنع أبدًا من التطور وتجديد الفكر.

• تحدي الإبداع وتجاوز العوائق (التعريب بلا لغة):

واجه شغفه بالأدب الغربي عائقًا كبيرًا لعدم إجادته اللغات الأجنبية، فتغلب على ذلك بذكاء عبر الاستعانة بمن يترجم له المعاني حرفيًا، ليقوم هو بصياغتها بأسلوبه البياني الساحر في روايات عدة.

• عبء الحساسية المفرطة (تحدي الشعور بالآخرين):

عاش بقلب شديد الرهافة يحمل هموم البسطاء ويتألم لمآسي المجتمع، وكان التحدي الأكبر أمامه هو عدم الانهيار تحت وطأة هذا الحزن، فاستطاع تحويل ألمه الداخلي إلى طاقة إبداعية أثمرت عن روائع كثيرة.

أهم الكتب والمؤلفات

ترك المنفلوطي بصمة لا تُمحى في الأدب العربي، وكانت كتاباته بمثابة جسر يربط بين الأدب الغربي والوجدان الشرقي، ومن أبرز أعماله:

إضاءة

• ليست كل الدموع ضعفًا.. فبعضها فهمٌ متأخر لما كان يجب أن نفهمه مبكرًا.

• كتاب النظرات:

الذي جمع فيه مقالاته الاجتماعية والأدبية والدينية الفذة.

• وروايات أخرى:

قام بتعريبها وإعادة صياغتها بأسلوبه البديع مثل «مجدولين»، «الفضيلة»، «الشاعر»، و«في سبيل التاج».

• العبرات:

وهو مجموعة قصص وجدانية إنسانية، طبيعة هذا العمل أنه يقدِّم مشاهد من الحياة تُروى لتُشعِر القارئ قبل أن تُعلِّمه.

وصف العمل الأدبي

يتكون الكتاب من تسع قصص، ثلاث وضعها المنفلوطي وهي: اليتيم، الحجاب، الهاوية. وواحدة مقتبسة من قصة أمريكية اسمها صراخ القبور، وجعلها بعنوان: العقاب. وخمس قصص ترجمها المنفلوطي وهي: الشهداء، الذكرى، الجزاء، الضحية، الانتقام.

• فكرة العمل:

لا يقدِّم المنفلوطي الحكاية لذاتها، بل يجعل منها مرآة للنفس البشرية، فنرى فيها الحب حين يُولَد ضعيفًا ثم يقوى، ونرى الفقد حين يأتي فجأة فيقلب ما أَلِفناه، ونرى الإنسان حين يقف عاجزًا أمام ما لا يملك تغييره، فيتعلم في النهاية ما لم يكن يتعلمه في حال السكون.

• أبرز القيم التي يعالجها:

الرحمة، الوفاء، أثر الكلمة، الصدق، الصبر، والوعي بالمشاعر.

• تمهيد:

لم يكن المنفلوطي يكتب ليحكي حكاية تُروى، بل ليوقظ في النفس إحساسًا كان ساكنًا، أو يلفت نظرها إلى معنى كانت تمر به دون أن تلتفت إليه؛ فكلماته لا تقف عند حدود المعنى، بل تمتد لتصيب موضعًا خفيًّا في القلب، حتى يشعر القارئ - وهو يتابع - أن ما يقرؤه ليس غريبًا عنه، بل قريب منه، كأنه مرَّ به يومًا، أو سيجد نفسه فيه يومًا.

وقد تبدو هذه القصص - في ظاهرها - متفرقة، لكل منها شخصياتها وأحداثها، لكنك إذا أمعنت النظر وجدت بينها خيطًا واحدًا يشدها جميعًا؛ خيطًا من الألم الإنساني الذي لا يختص بإنسان دون آخر، ولا بزمان دون زمان، بل يتكرر بصور مختلفة، فيجعل من كل قصة مرآة لأخرى، ومن كل تجربة صدى لتجربة.

فكأن المنفلوطي لا يحدثنا عن أشخاص بعينهم، بل عن الإنسان في حال ضعفه، حين يحب فيتعلق، وحين يخاف فيضطرب، وحين يفقد فيصمت، وحين يفهم - بعد ذلك كله - ما لم يكن يفهمه وهو في قلب التجربة.

• مسرح العبرات.. حيث تنبض الأماكن بالوجع:

تنقلت «العبرات» للمنفلوطي بين الريف المصري ببساطته وقسوته، وأحياء القاهرة القديمة بأزقتها المكتظة بالهموم، بل وامتدت لتشمل بيئات أوروبية في قصصه المقتبسة أو المعرَّبة. كان المكان عنده ليس مجرد مسرح للأحداث، بل كان شريكًا في صناعة الألم؛ فالكوخ المظلم يعكس عتمة النفوس المقهورة، والشارع الضيق يجسد ضيق الخيارات أمام الإنسان الضعيف.

وضع المنفلوطي وجهًا لوجه: بؤس الأكواخ التي يطحنها الفقر، وغرور القصور التي تعمى عن رؤية الحق. كان يرى الإنسان المسحوق تحت وطأة الطبقية والقهر، فجعل من قلمه صوتًا للمهمشين، مؤكدًا أن أقسى أنواع الألم ليس ما يسببه القدر، بل ما يصنعه إنسان بظلمه لأخيه الإنسان.

ولم يكتفِ المنفلوطي برصد أوجاع الداخل، بل التفت إلى صراع أعمق بدأ يغزو النفوس آنذاك: الصراع بين الشرق والغرب. قدَّم نماذج لشخصيات تسافر وتعود، لا محملة بالعلم النافع فقط، بل مثقلة بـ «صدمة حضارية» وأفكار غريبة تنسلخ عن جذورها. صوَّر حيرة الإنسان الشرقي حين تبهره المادية الغربية

تأمل

• أخطر أنواع الاغتراب ليس أن تبتعد عن وطنك، بل أن تعود إليه فلا تعرفه ولا يعرفك.

فيفقد بوصلته الروحية، ويصبح غريبًا في وطنه، ممزقًا بين ماضٍ يراه رجعيًا وحاضرٍ يفقده هُوِيَّته، ليثبت أن فقدان الهوية هو أشد أنواع الضياع.

• بداية الحكاية:

تأمل

- قد يبدأ الأمر بشيء صغير لا نلتفت إليه، ثم لا نلبث أن نكتشف أننا لم نعد نلتفت إلا إليه.

قد يبدأ الأمر بشيء لا يُلتفَت إليه؛ لقاء عابر في طريق مزدحم، أو كلمة قيلت على غير انتظار، أو نظرة لم يُحسَب لها حساب، ثم لا يلبث هذا الشيء الصغير أن يجد له في النفس موضعًا، فيستقر فيها دون أن يُعلن عن نفسه، حتى إذا تمكَّن منها، صار جزءًا منها، لا يُفصَل عنها بسهولة.

وقد رأيتُ في تلك الحكايات قلبًا تعلَّق بما لم يكن يعنيه، ثم لم يلبث أن صار كل ما يعنيه، ورأيتُ نفسًا وجدت في القرب راحة لم تكن تعرفها، حتى إذا اعتادتها، ظنت أنها لن تُحرَمَها أبدًا، وكأن الإنسان - حين يألف النعمة - ينسى أنها قد تُسلَب.

ولم يكن التحول في تلك البدايات صاخبًا، بل كان هادئًا كالنمو الخفي؛ يبدأ بإحساس خفيف، ثم يزداد شيئًا فشيئًا، حتى إذا نظر الإنسان إلى نفسه بعد حين، وجد أنه لم يعد كما كان، وأن في داخله شيئًا قد تغيَّر دون أن يحدد متى حدث ذلك التغير.

وقد يبلغ به الأمر أن ينتظر ما لم يكن ينتظره، وأن يلتفت إلى ما لم يكن يعنيه، وأن يرى في حضور إنسان واحد معنى يغنيه عن كثير مما حوله، وكأن العالم - على سعته - قد انحصر فجأة في موضع واحد.

وقد رأيتُ في بعض تلك الحكايات شابًا يقف كل يوم في طريقٍ لا يمرُّ به لضرورة، بل لأنه يعلم أن من يحب يمرُّ منه، فيتظاهر بأنه جاء لغير ذلك، ويشغل نفسه بالنظر في وجوه الناس، لكنه - في كل مرة - يعود بنظره إلى الموضع الذي ينتظرها فيه، كأن قلبه قد سبقه إلى الانتظار قبل أن يأتي جسده.

فإذا مرَّت اضطرب اضطرابًا خفيًا، لا يكاد يظهر، لكنه يشعر به في صوته إن تكلم، وفي سكونه إن صمت، فإذا انصرفت بقي واقفًا لحظة، كأنما يحاول أن يحتفظ من اللحظة بما يستطيع، ثم يمضي وهو لا يدري: أكان هذا اللقاء كافيًا.. أم إنه زاده تعلقًا؟

• حين يتحول القرب إلى خوف:

غير أن ما يبدأ هادئًا لا يظل كذلك دائمًا؛ فالقرب الذي كان يُطمئن النفس، قد يتحول - مع الوقت - إلى خوف من فَقْده، والراحة التي كان يجدها الإنسان في وجود من يحب، قد تصبح قلقًا من غيابه، وكأن النعمة حين تطول لا تبقى نعمة خالصة، بل يدخلها الخوف من زوالها.

فكِّر

- هل نحزن لأننا فقدنا، أم لأننا شعرنا أننا قد نفقد ولم نستطع أن نفعل شيئًا؟

وقد رأيتُ من يجلس إلى من يحب، فلا يستطيع أن يستمتع بلحظة قربه كما كان يفعل؛ لأنه مشغول بما قد يأتي بعد هذه اللحظة، فيعيش الحاضر وهو يفكر في فقده، وكأن الزمن قد انقسم في داخله بين ما يعيشه الآن، وما يخشاه غدًا.

وقد يبلغ به القلق حدًّا يجعله يفسِّر الصمت على أنه تغيُّر، والتأخر على أنه ابتعاد، والكلمة العابرة على أنها إشارة إلى ما يخافه، لا لأن ذلك صحيح، بل لأن النفس - إذا خافت - لم تعد ترى الأشياء كما هي، بل كما تخشاها، فتثقل عليها اللحظات، وتضيق بها المسافات، وكأنها تعيش ما لم يقع بعد، وتؤلمه قبل أن يقع.

وفي بعض تلك الحكايات، لم يكن الألم في الفقد نفسه، بل في توقُّعه؛ في تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان أن شيئًا ما قد يتغير، وأن ما يخافه قد يكون قريبًا، لكنه لا يملك أن يمنعه، فيبقى معلقًا بين رجاءٍ لا يطمئن إليه، وخوفٍ لا يستطيع أن يتخلص منه.

• لحظة العجز:

ثم تأتي لحظة يدرك فيها الإنسان أنه لا يملك من أمره شيئًا؛ لحظة يرى فيها ما يحدث أمامه، ولا يستطيع أن يرده، ولا أن يغير منه شيئًا، وكأنه خرج من موقع الفعل إلى موقع المشاهدة، لا يملك إلا أن ينظر، وأن يشعر، وأن ينتظر.

تعلَّم

• ليست كل المواقف تُحَل، بعضها يُعاش حتى نهايته.

وقد رأيتُ في تلك القصص مَن وقف أمام المرض عاجزًا، لا يملك إلا الدعاء، ومن وقف أمام الفراق صامتًا، لا لأنه لا يجد ما يقول؛ بل لأن ما في نفسه أكبر من أن يُقال، وأثقل من أن تحمله الكلمات.

وفي تلك اللحظات، لا يكون الألم في شدته فقط، بل في عجز الإنسان عن دفعه؛ فإن ما يمكن مقاومته يُحتمَل، أما ما لا يُدفَع، فإنه يثقل على النفس؛ لأنه يضعها في مواجهة شيء لا تملك حياله اختيارًا.

• حين يبلغ الألم مداه:

تأمل

• قد لا يكون أقسى ما نمر به هو ما يحدث، بل ما ننتظره ونحن نعلم أنه قد يحدث.

لم يكن الألم - في تلك الحكايات - يأتي دفعة واحدة فيُدرَك، بل كان يتسلل إلى النفس كما يتسلل الظل حين يمتد شيئًا فشيئًا، حتى إذا التفت إليه الإنسان وجده قد أحاط به من كل جانب، فلا يكاد يعرف متى بدأ، ولا كيف استقر في داخله بهذا العمق، وقد رأيتُ من كان يظن أنه قويٌّ على ما يمر به، حتى إذا اشتد عليه الأمر أدرك أن في النفس ضعفًا لا يظهر إلا حين تُسلَب مما تألف، وأن الإنسان لا يعرف حقيقة صبره إلا حين يُوضع في موضع لا يملك فيه إلا أن يصبر، أو ينهار.

وفي بعض تلك المشاهد، لم يكن الفقد قد وقع بعد، لكن حضوره كان يسبق وقوعه؛ كأن القلب يشعر بما سيأتي قبل أن يأتي، فيتهيأ له بقلقٍ لا يهدأ، ويعيش في انتظارٍ ثقيل، لا هو بالانتظار الذي يُرجى، ولا هو باليقين الذي يُسلَّم به، بل حالة بينهما تُرهِق النفس أكثر مما يُرهِقها الحدث نفسه.

وقد يجلس الإنسان في مجلسه، والناس من حوله يتحدثون ويضحكون، وهو بينهم حاضرٌ بجسده، غائبٌ بقلبه، منشغلٌ بشيء لا يراه غيره، وكأن العالم كله قد انصرف عنه، وبقي هو وحده مع ما يخافه.

وقد يجلس الإنسان بين الناس، يسمع حديثهم ولا يعيه، ويرى حركتهم ولا يتبعها؛ لأن في داخله حديثًا آخر لا

يسمعه غيره، حديثًا يدور حول ما يخشاه، ويتكرر في نفسه كأنه لا يريد أن ينتهي، فيحاول أن يشغل نفسه عنه، فلا يستطيع، وكأن ما في داخله قد صار أقوى من كل ما حوله.

وقد يبلغ الألم بصاحبه حدًّا يجعله يرى الأشياء على غير ما كان يراها؛ فيقرأ في الوجوه ما لا يُقال، ويسمع في الكلمات ما لم يُقصَد، ويحمِّل اللحظات ما لا تحتمل، لا لأن الواقع تغيَّر؛ بل لأن النفس - حين تخاف - تعيد تفسير كل شيء على ضوء هذا الخوف.

وهنا لا يعود السؤال: ماذا سيحدث؟ بل: كيف أحتمل ما سيحدث؟

• بين الرجاء والانكسار:

ومع ذلك، لا يخلو القلب من رجاءٍ ضعيف يتمسك به، كأنما يخاف أن يسقط إن تركه؛ رجاءٍ يقول لصاحبه: لعل الأمر لا يكون كما تظن، ولعل ما تخشاه لا يقع، فيبقى متعلقًا بهذا الرجاء، لا لأنه قوي، بل لأنه لا يملك غيره.

تعلَّم

• ليست الدموع دليل ضعف، بل قد تكون اللغة الوحيدة التي يفهم بها القلب ما يحدث له.

وقد رأيتُ في تلك الحكايات من كان ينتظر كلمة واحدة تُعيد إليه طمأنينته، أو نظرة تُبدد خوفه، فإذا جاءت على غير ما أراد، انكسر في داخله شيء لم يكن يظن أنه ينكسر، وكأن الأمل - حين ينهار - لا يذهب وحده، بل يأخذ معه ما كان يستند إليه القلب.

وقد يكون المشهد بسيطًا في ظاهره: صمتٌ في موضع كان يُنتظَر فيه الكلام، أو غيابٌ في وقت كان يُنتظَر فيه الحضور، أو كلمة جاءت بغير نبرتها المعتادة، لكن أثر هذه الأشياء في النفس لا يكون بسيطًا؛ لأنها تأتي في وقتٍ يكون فيه القلب مهيَّأً للألم.

وفي تلك اللحظات لا يكون البكاء ضعفًا، بل تعبير عن معنى لا يجد طريقه إلى اللغة؛ لأن بعض ما في النفس لا يُحكى، بل يُحَس، ولا يُفهَم إلا إذا عِيشَ.

• حين يقع ما لا يُرَدُّ:

ثم تأتي اللحظة التي لا يبقى بعدها انتظار، ولا أمل، ولا احتمال آخر؛ لحظةٌ يثبت فيها ما كان يُخشى، وينتهي فيها ما كان يُرجى، فيجد الإنسان نفسه أمام حقيقة لا يستطيع أن يغيرها، ولا أن يخفف منها، وكأن الحياة قد توقفت عند هذه النقطة، وتركت له أن يواجهها وحده.

وفي بعض تلك الحكايات، لم يكن الفقد صاخبًا، بل جاء هادئًا، لكنه كان - مع ذلك - أشد وقعًا؛ لأن الصمت الذي يصاحبه يجعل الإنسان يسمع ما في داخله بوضوح، دون أن يشغله عنه شيء.

فكِّر

• هل نحزن لأننا فقدنا، أم لأننا لم نُدرك قيمة ما كان لدينا إلا بعد فواته؟

وقد يقف الإنسان أمام من يفقده، فلا يستطيع أن يقول شيئًا، لا لأنه لا يريد، بل لأن ما في نفسه أكبر من أن يُقال، وأعمق من أن تُحيط به الكلمات، فيكتفي بالصمت، وكأن الصمت - في بعض المواضع - أصدق من كل قول.

وقد تمتد تلك اللحظة في نفس الإنسان امتدادًا طويلًا، حتى بعد أن تنتهي،

فيبقى أثرها فيه، كأن الزمن قد توقف عندها، لا لأنها كانت أطول من غيرها؛ بل لأنها كانت أعمق، وكأن ما قيل فيها - أو لم يُقل - قد ترك في القلب ما لا يمحوه مرور الأيام.

وقد عبَّر المنفلوطي عن هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، حين جعل الحزن لا يظهر في الكلام، بل فيما يعجز الكلام عن حمله، وكأن القلب - حين يشتد به الألم - يستغني عن اللغة؛ لأنه يجدها أضيق من أن تتسع لما فيه.

وفي تلك اللحظة، لا يكون الألم صخبًا كما كان في بدايته، بل يتحول إلى هدوء ثقيل، كأن النفس قد استنفدت قدرتها على الانفعال، فدخلت في حالة من الصمت، لا لأنها هدأت، بل لأنها لم تعد تجد وسيلة تعبِّر بها عما فيها.

• ما بعد الانكسار:

ولا تنتهي الحكاية عند الفقد، بل تبدأ بعده حالة أخرى، أشد هدوءًا في ظاهرها، لكنها أعمق أثرًا في داخلها؛ حالة يعيش فيها الإنسان مع ما حدث، لا مع ما كان يتوقعه، فيعيد النظر في كل شيء، وفي كل لحظة مرَّت به، وكأنه يحاول أن يفهم ما لم يفهمه حين كان الحدث يقع.

وقد رأيتُ من يجلس وحده، يستعيد كلماتٍ قيلت، ومواقف مرَّت، وتفاصيل صغيرة لم يكن يلتفت إليها، فإذا بها الآن تأخذ في نفسه حجمًا أكبر مما كانت عليه، وكأن الفقد قد أضاء له ما كان غامضًا، لكنه جاء متأخرًا.

وفي هذه المرحلة، لا يكون الألم في الفقد ذاته، بل في الوعي به؛ في إدراك الإنسان لما كان يستطيع أن يفعله ولم يفعله، ولما كان يمكن أن يقوله ولم يقله، وكأن الندم - في بعض الأحيان - ليس على ما حدث، بل على ما لم يحدث.

اربط بحياتك

- هل مررت بلحظة أدركت فيها قيمة شيء بعد أن فقدته؟ كيف غيَّر هذا الإدراك نظرتك لما حولك؟

• ما الذي يبقى بعد الدموع؟

وإذا انقضت تلك الحكايات - على ما كان فيها من قُرْبٍ وفقد، ومن رحاءٍ وانكسار - لم تنقضِ آثارها في النفس، ولم تذهب كما تذهب الأشياء العارضة، بل بقي منها شيء خفي، لا يُرى، لكنه يُحَس، كأن القلب قد تغيَّر بها تغييرًا لا يعود معه كما كان، وكأن الإنسان قد عبر بها من حالٍ إلى حال، دون أن يشعر بلحظة العبور نفسها.

تأمل

- ليست التجربة في ما نمر به، بل في ما نُدركه بعد أن نمر به.

وليس الذي يبقى منها هو صورها كما وقعت، ولا تفاصيلها كما جرت، بل ذلك الأثر الذي تركته في الداخل، تلك اللحظات التي فهم فيها الإنسان ما لم يكن يفهمه، وأدرك ما لم يكن يلتفت إليه، وتغيَّرت بها نظرته إلى نفسه وإلى غيره، حتى لو لم يستطع أن يعبِّر عن هذا التغير بوضوح.

وقد رأيتُ - في تلك الحكايات جميعًا - أن الإنسان لا يخرج من حزنه كما دخل إليه؛ لأنه حين يدخل يكون مشغولًا بما فقد، أما حين يخرج، فإنه يكون قد عرف شيئًا عن نفسه، وعن حدود ما يحتمل، وعن مقدار ما كان يظنه ثابتًا ثم تبيَّن له أنه قابل للانكسار.

• حين يصبح الألم فهمًا:

وليس كل من حَزِن تعلَّم، ولا كل من بكى فهم؛ فإن من الناس من تمر به التجربة كما تمر به الأيام، لا يقف عندها، ولا يسأل نفسه عما جرى، فيخرج منها كما دخل، كأنها لم تترك فيه أثرًا، ومنهم من يقف عندها طويلًا، يتأملها، ويعيد النظر فيها، ويحاول أن يفهم ما الذي حدث، ولماذا حدث، وماذا غيَّر فيه، فيجد - بعد حين - أن ما ظنه ألمًا خالصًا، كان يحمل في داخله معنى آخر.

وقد يدرك - في هدوء - أن تلك اللحظة التي ظنها نهاية كانت بداية لفهمٍ لم يكن ليأتي بغيرها، وأن ما فقده لم يكن ضياعًا خالصًا، بل كان كشفًا لمعنى لم يكن يراه، وكأن الحياة - في بعض ما تأخذه - تعطي في موضع آخر، لكن الإنسان لا يدرك ذلك إلا بعد أن تهدأ نفسه، ويبتعد قليلًا عن موضع الألم.

تعلَّم

• ليس الألم هو ما يثقلنا، بل ما لا نفهمه منه.

وهنا يتحول الألم من كونه عبئًا يثقل النفس، إلى كونه بابًا يفتح لها طريق الفهم لا لأنه صار خفيفًا، بل لأنه صار واضحًا، وما كان واضحًا يُحتمَل أكثر مما كان غامضًا؛ لأن النفس إذا فهمت استطاعت أن تتعامل، وإذا لم تفهم بقيت حائرة، وإن سكن ظاهرها.

وقد يجلس الإنسان بعد زمنٍ طويل، يتذكر ما مرَّ به، فلا يشعر بنفس الألم الذي كان يشعر به من قبل، لكنه يدرك - في هدوء - أن تلك التجربة قد علَّمته ما لم يكن ليتعلمه بغيرها، وكأن الزمن لا يزيل الأثر، بل يغيِّر طريقته في الظهور.

• الإنسان كما يكشفه الحزن:

وفي تلك الحكايات، لا نرى الحزن وحده، بل نرى الإنسان كما هو حين يحزن؛ نراه صادقًا حين تسقط عنه الأقنعة، وضعيفًا حين يواجه ما لا يقدر عليه، ونراه - في بعض الأحيان - أقرب إلى حقيقته مما يكون عليه في أوقات القوة؛ لأن القوة قد تُخفِي، أما الضعف فإنه يُظهِر.

فكأن المنفلوطي لا يحدثنا عن الحزن لذاته، بل عن الإنسان فيه؛ عن تلك اللحظة التي يسقط فيها ما يتكلفه، ويظهر ما كان يخفيه، فيعرف نفسه - ولو متأخرًا - معرفة لم يكن ليصل إليها في حالٍ غير هذه.

فكِّر

• هل نعرف أنفسنا أكثر في لحظات القوة، أم حين لا يبقى لنا إلا أن نكون كما نحن؟

وقد رأيتُ في تلك الصور من كان قويًّا في ظاهره، فلما مرَّ به ما مرَّ، ظهر منه من الضعف ما لم يكن يُرى، لا ليُهان، بل ليُفهَم؛ لأن الإنسان لا يُعرَف في حال استقراره، بل في حال اضطرابه، ولا يُقاس بما يقول، بل بما يفعل حين تضيق به السبل.

• ختام الحكايات:

وهكذا، لا تكون هذه القصص - على كثرتها - إلا حكاية واحدة، تتكرر بصور مختلفة، لكنها تنتهي إلى معنى واحد: أن القلب لا يتعلم إلا إذا شعر، ولا يفهم إلا إذا تألم، وأن ما نظنه نهاية قد يكون - في حقيقته - بداية لفهمٍ لم يكن ليأتي بغيره.

فإذا خرج الإنسان من هذه الحكايات، لم يكن أهم ما خرج به أنه تأثر، بل أنه صار يرى نفسه والناس من حوله رؤيةً أعمق؛ فيرفق بمن يخطئ، ويعذر من يضعف، ويُدرك أن في كل قلب قصة لا تُحكى كما هي، بل تُحَس كما عاشها صاحبها.

وقد يمرّ بعد ذلك بموقفٍ يشبه ما قرأ، فيتذكر، لا ليحزن، بل ليفهم، وكأن القراءة - في هذه الحال - لم تكن تسلية، بل إعدادًا لما قد يمر به الإنسان يومًا.

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكر

تتبَّع ملامح الحزن في النص.. كيف عبَّر الكاتب عن مشاعر الفقد والألم؟

ما المواقف أو الصور التي جعلت هذه المشاعر أكثر تأثيرًا فيك؟

• ثانيًا: أتأمل

لماذا يترك الحزن أثرًا عميقًا في النفس حتى بعد مرور الوقت؟

كيف يمكن للمشاعر الصادقة أن تصل إلى الآخرين حتى وإن لم يعيشوا نفس التجربة؟

• ثالثًا: أناقش

هل ترى أن التعبير عن الحزن يُخفّف من أثره، أم إن الصمت قد يكون أحيانًا أبلغ؟ وضِّح رأيك.

في رأيك، ما الذي يجعل بعض الأشخاص أكثر قدرة على تحمُّل الألم من غيرهم؟

• رابعًا: أربط بحياتي

هل مررت بموقف شعرت فيه بحزن عميق؟ كيف تعاملت معه؟

ما الذي تتعلمه من هذا النص عن التعامل مع مشاعر الحزن أو الفقد؟

• خامسًا: أطبق

تخيَّل أنك تكتب رسالة إلى صديق يمرُّ بحالة حزن...

اكتب في ثلاثة أو أربعة أسطر كلمات تواسيه بها، وتخفف عنه، معبِّرًا عن مشاعر صادقة.

• سادسًا: أوظف

كيف يرى الكاتب الشخصية الإنسانية في لحظات ضَعْفها وعَجْزها كما فصَّلها في النص؟ وما الذي تكشِفه هذه اللحظات مقارنةً بلحظات القوَّة؟

وا إسلاماه

علي أحمد باكثير

«وا إسلاماه» وحياة مؤلفها علي أحمد باكثير

نبذة عن حياته ونشأته:

اسمه «علي أحمد باكثير»، كاتب وروائي ومسرحي بارز. وُلد في مطلع القرن العشرين (١٩١٠م) في إندونيسيا لأبوين من حضرموت، ونشأ معتزًا بجذوره العربية والإسلامية. قاده شغفه بالأدب والعلم إلى السفر لمصر والاستقرار فيها، حيث تنفَّس ثقافتها واندمج في حركتها الأدبية، تميز باكثير بمزجه الفريد بين الرؤية الإسلامية العميقة والبراعة الفنية في السرد؛ مما جعله صوتًا متفردًا في صياغة التاريخ الأدبي وبعث الأمجاد في قوالب درامية مشوقة، وتُوفي عام ١٩٦٩م.

المحطات المهمة في حياته:

كان انتقاله إلى مصر والتحاقه بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) نقطة تحوُّل كبرى، حيث تفاعل مع كبار أدباء عصره. يُعَد باكثير أوَّل مَن أدخل الشِّعْر المُرسَل إلى العربية بترجمته «روميو وجولييت» ١٩٣٦م، ثم الشِّعْر الحر في مسرحية «أخناتون ونفرتيتي» ١٩٣٨م. فله ريادة واضحة في «المسرح الشعري الإسلامي». لم يكن مجرد سارد للتاريخ، بل كان يقرأ الحاضر من خلال الماضي، محذرًا من التفرق وداعيًا إلى الوحدة والنهوض.

التحديات التي واجهها:

عاش باكثير في فترة تموج بحركات التحرر وصراع الهويات. كان التحدي الأكبر أمامه هو: كيف يواجه موجات اليأس وفقدان الثقة التي تعصف بالشباب، وكيف يعيد ربطهم بتاريخهم المشرق دون أن يقدِّم لهم مجرد سرد تاريخي جاف؟ تغلَّب على ذلك بعبقرية «أدبنة التاريخ»؛ حيث حوَّل الأحداث الكبرى (كمواجهة التتار) إلى دراما إنسانية حية تنبض بالمشاعر، والتردد، والأمل؛ ليثبت أن الأبطال (مثل قطز) لم يُولَدوا بلا خوف، بل تجاوزوا خوفهم بالقرار والفعل.

إضاءة

- الأمم لا تنهض حين تختفي الأخطار، بل حين تتعلم كيف تواجهها.

أهم الكتب والمؤلفات:

ترك باكثير إرثًا أدبيًا تنوَّع بين الرواية والمسرح، وسعى من خلال كلماته إلى إيقاظ وعي الأمة. من أبرز أعماله:

- **«الثائر الأحمر» و«مأساة أوديب»:**

من أعماله البارزة التي وظَّف فيها السرد والمسرح لمناقشة قضايا إنسانية وفلسفية كبرى.

- **«وا إسلاماه»:**

دُرَّتُه الروائية الخالدة، وهي رواية تاريخية تدور أحداثها في بيئة مصر وبلاد الشام خلال عصر المماليك.

وصف العمل الأدبي:

تتكون الرواية من عشرين فصلًا مرقمًا، تسرد ملحمة بطلها «محمود» (سيف الدين قطز) منذ طفولته في بلاد جلال الدين الخوارزمي وصولًا إلى اعتلاء عرش مصر وانتصاره في معركة عين جالوت.

صدرت الرواية للأديب علي أحمد باكثير في طبعتها الأولى عام ١٩٤٥م عن «مكتبة مصر»، وتُعَد من كلاسيكيات الرواية التاريخية العربية.

- **فكرة العمل:**

تصوِّر الرواية واحدة من أخطر لحظات التاريخ الإسلامي، حين اقترب خطر «التتار» مهددًا الوجود والهوية. وتكشف من خلال رحلة بطلها «قطز» كيف يمكن لأمة تبدو ضعيفة ومشتتة أن تستعيد قوتها وتنهض من جديد حين يظهر من يوقظ فيها روحها، ويثبت أن الهزيمة ليست قدرًا لا يُرَد، بل قد تكون نتيجة لقرار لم يُتَّخَذ.

- **أبرز القيم التي يعالجها العمل:**

الشجاعة وإدارة الخوف، اليقين، تحمُّل المسئولية، الثبات في المواقف، وأن التغيير الداخلي للإنسان هو حجر الأساس لتغيير الواقع.

تأمل

- بعض اللحظات لا تصنع الإنسان، بل تكشف ما كان يتكوَّن فيه منذ زمن.

- **تمهيد:**

تأخذنا هذه الرواية إلى زمنٍ لم يكن فيه الخطر فكرة بعيدة، بل واقعًا يقترب بثقل، يحمل معه أخبارًا تُربك النفوس، وتُغيِّر نظرة الناس إلى ما حولهم. لم تكن المدن التي سقطت محرد أسماء تُذكَر في الأحاديث، بل كانت إشارات واضحة إلى أن ما يحدث هناك لن يظل محصورًا في مكانه، بل قد يمتد، ويصل، ويغيِّر كل شيء.

لكن الرواية لا تقف عند وصف هذا الخطر، بل تتجاوزه إلى ما هو أعمق وأشد

انتبه

- حين يسيطر الخوف على التفكير، يبدأ الإنسان في قبول ما كان يرفضه.

أثرًا: كيف يتغير الإنسان حين يشعر أن ما يملكه مهدد؟ وكيف يمكن لهذا الشعور أن يقوده إلى الانكسار. أو يدفعه إلى النهوض؟

ومن خلال شخصية قطز، لا نرى قائدًا ظهر فجأة، بل إنسانًا تكوَّن عبر التجربة، وتشكَّل عبر المعاناة، حتى أصبح قادرًا على أن يتخذ موقفًا.. في لحظة كان فيها كثيرون يكتفون بالمشاهدة.

لم يكن اسم التتار يُتداول كما تُتداول بقية الأسماء، بل كان يُقال بحذر، كأن في حروفه شيئًا يثقل النطق به. وكانت الأخبار تصل متقطعة، لكنها متشابهة في معناها: مدن سقطت، وجيوش تراجعت، وناس تركوا خلفهم ما اعتادوه، دون أن يعرفوا إلى أين يتجهون.

لم يرَ الناس هذه الأحداث بأعينهم، لكنهم رأوا أثرها في الوجوه، وفي نبرة الحديث، وفي الصمت الذي صار أطول من المعتاد. كانت المجالس تبدأ بالكلام، ثم لا تلبث أن تنتهي إلى صمتٍ ثقيل، وكأن الكلمات لم تعد تكفي لتفسير ما يحدث.

وكان أخطر ما في الأمر، ليس ما فعله التتار، بل ما بدأ يتسلل إلى القلوب في صمت: شعور بأن هذه القوة لا يمكن مواجهتها، وأن ما يحدث قدَرٌ لا يمكن دفعه.

لم تكن الأمة في تلك اللحظة على حال واحدة، ولم تكن مستعدة كما ينبغي لمواجهة ما يقترب منها. كان التفرق ظاهرًا، ليس في المواقع فقط، بل في النفوس أيضًا، حيث تراجع الإحساس بالقوة، وحلَّ مكانه انتظارٌ يزداد مع الأيام، ومع ذلك، لم يكن كل شيء قد انتهى.

ففي عمق هذا الضعف، كانت هناك بذور قوة لم تظهر بعد، قوة لا تعتمد على العدد وحده، ولا على السلاح فقط، بل على قدرة الإنسان على أن يقول في لحظة حاسمة: لا.

• الطفولة المسلوبة.. والشيخ الذي حفظ البذرة:

فكّر

• ما يمر به الإنسان في صغره، قد يكون هو ما يحدد طريقه حين يكبر.

لم تبدأ قصة بطلنا من ساحة المعركة، بل من لحظة انكسار قاسية، فقد كان أميرًا يُدعى «محمود»، يعيش في كنف خاله حلال الدين، حتى ألْتهم التتار ملكهم. وفي زحام السقوط برز دور «الشيخ سلامة»، ذلك الأب الروحي والمربي الذي أدرك أن إنقاذ النسل أهم من التمسك بأطلال المُلك. خبَّأ «محمود» وابنة خاله «حهاد»، وعلمهما الصبر، ثم اتخذ قرارًا قاسيًا ببيعهما كـ «رقيق» في سوق دمشق بأسماء مستعارة «قطز وحلنار» لينقذ حياتهما من سيوف التتار. لقد سُلِبت طفولتهما وهُوِيَّتهما، لكن الشيخ سلامة غرس فيهما يقينًا بأن الأيام دُول.

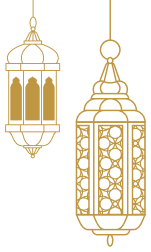

• بين مرارة العبودية وحلاوة الأنس:

لم تكن «جلنار» مجرد رفيقة قيد، بل كانت العزاء الوحيد في حياة العبودية القاسية. كانت قصة الحب بينهما هي الحصن الذي يلوذان به من قسوة الأيام. وحين افترقا في أسواق النخاسة وبيعا لأسياد مختلفين، لم يمت الحب، بل تحوَّل إلى دافع إنساني عميق؛ وظلَّ قطز يبحث عنها لسنوات في مصر والشام. لقد أدرك أن استرداد كرامته وهويته هو الطريق الوحيد لاسترداد من يحب، وكأن هذا الحب هو ما حفظ إنسانيته من أن تُمحى تحت وطأة العبودية.

• التحول وبداية الوعي بالفعل:

شبَّ قطز في مصر وسط بيئة مملوكية مشبعة بالمؤامرات، حيث الدماء تُراق في القصور قبل ساحات المعارك. شهد «حمَّام الدم» الذي بدأ بمقتل توران شاه، ثم مقتل أستاذه المعز أيبك، وصولًا إلى النهاية المأساوية لـ «شجر الدر» بالقباقيب. في هذه الغابة من الخناجر صَعِد قطز للعرش، متسلِّحًا بالحذر واليقين، وفي هذا الدَّرْب الموحش برزت علاقته بـ «بيبرس»، رفيق الدرب الذي لم تكن علاقته به مثالية دائمًا. كان التنافس بينهما يمثل صراعًا خفيًّا بين مدرستين؛ مدرسة بيبرس التي تميل إلى «الدهاء والقسوة»، ومدرسة قطز التي تتشبث بـ «الإيمان والعدل». كان هذا التضاد اختبارًا حقيقيًّا لقطز: كيف يجمع شتات الأقوياء، ويحتوي طموح رفاقه دون أن يفقد بوصلة مبادئه، لم يعد الخطر فكرة تُتداول في المجالس، بل صار واقعًا يفرض نفسه على كل من يسمع، بل وعلى كل من يحاول أن يتجاهل. لم تعد الأخبار تُروى بدهشة فقط، بل بشيء من القلق الذي يتسلل إلى النفوس دون استئذان. ومع تتابع ما يُقال، بدأ الإحساس بالعجز يكبر، لا لأنه حقيقي دائمًا، بل لأنه تكرَّر حتى بدا كأنه الحقيقة الوحيدة.

وفي هذا الجو، لم يكن الفرق بين الناس في معرفتهم بما يحدث، بل في طريقة فهمهم له. فبينما رأى كثيرون في هذه الأحداث نهاية تقترب، بدأ قطز يرى فيها لحظة لا يمكن تأجيلها، لحظة تُجبر الإنسان على أن يختار موقعه: هل يكون شاهدًا.. أم صاحب موقف؟

لم يكن هذا التحول في داخله صاخبًا، ولم يُعلن عنه، بل كان يتكوَّن في صمت. كان يسمع ما يسمعه الآخرون، لكنه لا يكتفي بما يسمع، بل يسأل نفسه عمَّا يجب أن يكون. ولم يكن هذا السؤال سهلًا؛ لأنه لا يترك للإنسان مساحة واسعة للاختباء خلف التردد.

كبُر في داخله إحساس بأن ما يحدث لا يمكن أن يُترَك، وأن الانتظار لن يغيِّر شيئًا، بل قد يزيد الأمر سوءًا. ومع هذا الإدراك، بدأ يتشكل القرار، لا ككلمة تُقال، بل كاتجاه يفرض نفسه.

لم يكن قطز يخلو من التردد، لكنه لم يسمح له أن يستقر طويلًا. كان يعرف أن الخوف لا يختفي، لكنه يتراجع حين يتحول إلى فعل. وكان يدرك أن بعض اللحظات لا تنتظر من يكون مطمئنًّا، بل من يكون صادقًا في موقفه.

وفي إحدى اللحظات، جلس الناس في مجلسٍ يكثر فيه الكلام ويقل فيه اليقين. كانت الأصوات تتداخل، وكل واحد يضيف إلى ما سمع، وكأنهم يحاولون أن يفهموا ما لا يمكن فهمه بالكلام وحده.

قال أحدهم بصوت منخفض، وكأنه لا يريد أن يُسمَع ما يقول: يقولون إنهم لا يُهزَمون...

تأمل

• أحيانًا يبدأ التغيير بجملة واحدة.. لكنها صادقة.

سكت لحظة، ثم أضاف، وقد بدا عليه التردد: وأن مُدُنًا كاملة لم تستطع أن تقف أمامهم.

تبادل الحاضرون النظرات، ولم يكن في تلك النظرات ما يشير إلى اعتراض، بل إلى تسليمٍ بدأ يتشكل.

رفع قطز رأسه، ولم يتكلم فورًا. كان يستمع، لا للكلمات وحدها، بل لما تحمله من معنى خفي: الخوف الذي بدأ يتحول إلى اقتناع.

قال رجل آخر، وكأنه يسأل السؤال الذي يدور في ذهن الجميع: وما الذي نستطيع نحن أن نفعله؟

كانت الجملة بسيطة، لكنها ثقيلة؛ لأنها لم تبحث عن إجابة، بل أعلنت أن الإجابة غير موجودة. عندها تكلم قطز، بصوت هادئ، لكنه واضح: يمكن أن نفعل ما لم يفعله غيرنا.

لم يكن صوته مرتفعًا، لكنه كان مختلفًا. لم يكرر ما قيل، ولم يستسلم لما شاع، بل قال شيئًا يفتح بابًا لم يكن مفتوحًا. نظروا إليه، لا لأنهم اقتنعوا فورًا، بل لأنهم لم يعتادوا أن يسمعوا مثل هذا الكلام في مثل هذا الوقت.

قال أحدهم، وقد بدا عليه الاستغراب: وكيف؟

أجاب قطز، بعد لحظة قصيرة من الصمت: أن نقرر أولًا.. أننا لن نكون مثل من انهزموا.

لم تكن هذه الجملة خطة، ولم تكن وعدًا، لكنها كانت بداية. بداية لفكرة جديدة، فكرة أن الهزيمة ليست قدرًا لا يُرَد، بل قد تكون نتيجة لقرار لم يُتَّخَذ.

لم يتغير كل شيء بعد هذه اللحظة، لكن شيئًا بدأ يتحرك. لم يعد الحديث يدور فقط حول ما حدث، بل حول ما يمكن أن يحدث. ولم يعد الخوف الصوت الوحيد، بل ظهر إلى جواره صوت آخر، ضعيف في البداية، لكنه حاضر: يمكن أن نحاول.

بدأ قطز يقترب من الناس أكثر، لا ليأمرهم، بل ليجعلهم يرون ما يراه. لم يكن ينكر خوفهم، بل يعترف به، ثم يضع أمامهم ما هو أكبر منه.

قال لأحدهم يومًا: الخوف طبيعي.. لكن أن نتركه يحدد ما نفعل، هذا هو الخطر.

نظر إليه الرجل، وكأنه يسمع هذه الفكرة لأول مرة، لا لأنها جديدة، بل لأنها قيلت في وقتٍ يحتاجها.

قال رجل آخر، وقد بدا عليه القلق: وإن خسرنا؟

لم يُجب قطز سريعًا، بل ترك السؤال يأخذ مكانه، ثم قال: سنخسر ونحن نحاول.. لا ونحن ننتظر.

لم تُزِل الإجابة الخوف، لكنها غيَّرت معناه. لم يعد الخوف سببًا للتوقف، بل شيئًا يمكن تجاوزه.

وسأله آخر: وإن لم نكن مستعدين؟

ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال: لن نكون مستعدين أبدًا.. إذا انتظرنا الاستعداد الكامل.

سكت الرجل لحظة، ثم قال، وكأنه اتخذ قرارًا: إذن.. نبدأ؟

أجاب قطز، دون تردد: نبدأ.

تعلَّم

- الإنسان لا يحتاج إلى من ينكر مشاعره، بل إلى من يواجهها.

لم يطلب قطز القيادة، ولم يسعَ إليها، لكنها بدأت تتشكل حوله، حين وجد الناس فيه ما لم يجدوه في أنفسهم؛ وضوحًا في الرؤية، وثباتًا في الموقف.

لم يكن أقواهم سلاحًا، لكنه كان أكثرهم استعدادًا لأن يتحمل ما لا يريد غيره أن يتحمله. ولم يكن أكثرهم كلامًا، لكنه كان أصدقهم تعبيرًا عمَّا يشعر به الجميع.

فكِّر

- القيادة لا تُمنح لمن يطلبها، بل لمن يثبت أنه قادر عليها.

ومع مرور الوقت لم يعد وجوده عاديًّا، بل صار مرجعًا؛ إذا تكلم استمعوا، وإذا سكت انتظروا. لم يكن ذلك لأنهم أُجبروا، بل لأنهم وجدوا فيه ما كانوا يبحثون عنه دون أن يعرفوا كيف يسمُّونه.

بدأ الاستعداد، لا كأمرٍ مفاجئ، بل كتحولٍ تدريجي. لم يكن كل شيء منظَّمًا كما ينبغي، ولم تكن الصورة واضحة بالكامل، لكن الاتجاه قد تغيَّر.

لم يعد الناس ينتظرون ما سيحدث، بل بدءوا يفكرون فيما سيفعلون. لم يعد الخوف هو النهاية، بل أصبح جزءًا من الطريق. وفي هذا التحول، كان أهم ما تغيَّر.. هو الإنسان نفسه.

• الاقتراب من المواجهة:

تأمل

- الشجاعة لا تعني غياب الخوف، بل تعني أن يكون هو مَن يحدِّد الطريق.

حين اقترب الخطر التتري، لم يكن السلاح وحده كافيًا، بل كانت الأمة بحاجة إلى إيقاظ الضمائر، وهنا تجلى دور «الشيخ العز بن عبد السلام»، سلطان العلماء، الذي لم يخشَ في الحق لومة لائم. فحين احتاج الجيش إلى المال، وقف بشجاعة في وجه السلاطين، وأصدر فتواه الجريئة بأخذ أموال الأمراء قبل أن تُفرَض الضرائب على الرعية. لم يكن هذا الموقف مجرد فتوى عابرة، بل كان زلزالًا غيَّر مسار حياة قطز، وعلَّمه أن القيادة الحقيقية تبدأ بالخضوع للحق، وأن النصر لا يُنال إلا بطهارة الوسيلة قبل شرف الغاية. لم يعد ما يحدث مجرد حديث يتكرر في المجالس، بل صار اتجاهًا واضحًا لا يمكن التراجع عنه. تحولت الفكرة إلى استعداد، وتحول الاستعداد إلى حركة، وأصبح كل ما كان يُقال في الأيام الماضية يقترب من أن يُختبَر في الواقع.

تعلَّم

- أحيانًا لا يحتاج الإنسان إلى ضمان النجاح، بل إلى فرصة ليحاول.

كانت الأيام تمر بسرعة مختلفة، كأن الزمن نفسه لم يعد يسير بالوتيرة المعتادة، بل يدفعهم إلى الأمام دفعًا. لم يعد هناك وقت طويل للتفكير، ولا مساحة واسعة للتردد، بل أصبح كل شيء يتحدد بما يُفعَل الآن، لا بما يُؤجَّل.

وفي هذا التحول، لم يختفِ الخوف، لكنه لم يعد يسيطر كما كان، صار حاضرًا، لكنه لم يعد الصوت الوحيد، بل أصبح جزءًا من شعور أكبر، يمتزج فيه القلق بالعزم، والتردد بالقرار.

كان الاستعداد يزداد وضوحًا مع كل يوم. لم يعد مجرد نية، بل عملًا يتوزع بين الناس، كلٌّ يبحث عن دوره، وكلٌّ

يحاول أن يكون جزءًا مما يتكوَّن. لم تكن الصورة كاملة، ولم يكن كل شيء منظمًا، لكن الاتجاه كان ثابتًا.

لم تعد المجالس كما كانت، ولم يعد الكلام يدور حول ما حدث فقط، بل حول ما يجب أن يحدث. صار الحديث أقل، والعمل أكثر، وكأن الكلمات قد أدت دورها، وبدأت الأفعال تأخذ مكانها.

وكان قطز في قلب هذا التحول لا يراقب من بعيد، بل يتحرك بين الناس، يرى ما يفعلون، ويسمع ما يقولون، ويشعر بما يشعرون به. لم يكن منفصلًا عنهم، بل واحدًا منهم، يحمل ما يحملون، ويواجه ما يواجهون.

قال له أحدهم يومًا، وقد بدا عليه القلق: هل تظن أننا نستطيع؟

نظر إليه قطز، ولم يُجِب فورًا، كأنه يَزِن السؤال قبل أن يجيب عنه، ثم قال بهدوء: إذا لم نحاول.. فلن نعرف.

لم تكن الإجابة حاسمة، لكنها كانت كافية؛ لأنها لم تعطِ وعدًا، ولم تزرع وهمًا، بل فتحت بابًا يمكن أن يُدخَل منه.

انتبه

- اللحظات التي تسبق الأحداث الكبرى تكون هادئة.. لكنها مشبعة بالتركيز.

ومع اقتراب اللحظة بدأ كل شيء يزداد وضوحًا، لم يعد السؤال: هل سنواجه؟ بل أصبح: كيف سنواجه؟ وأين؟ ومتى؟

كانت هذه الأسئلة لا تبحث عن تردد، بل عن إجابات عملية؛ لأن الوقت لم يعد يسمح بإعادة التفكير في أصل القرار، لقد تم اتخاذ القرار، وبقي أن يُنفَّذ. وفي هذا الجو ظهرت طبيعة اللحظات الحاسمة؛ فهي لا تكون صاخبة كما يُتوقَّع، بل يغلب عليها هدوء ثقيل، كأن الجميع يعرف أن ما سيأتي لن يكون عاديًّا.

اقتربت المواجهة أكثر، ولم يعد هناك ما يمكن إضافته. كل ما يمكن فعله قد بدأ، وكل ما يمكن التفكير فيه قد قيل. ولم يبقَ إلا أن يحدث ما لا يمكن تأجيله.

وقفوا في أماكنهم، لا يتحدثون كثيرًا، لكنهم يفهمون ما يحدث حولهم. كانت العيون أكثر حضورًا من الكلمات، وكانت الحركة تحمل في داخلها ما لا يُقال.

تقدم قطز خطوة، ونظر إليهم، لا كقائد يقف فوقهم، بل كواحد منهم يعرف ما يدور في داخلهم. لم يحتج إلى كلمات كثيرة؛ لأن اللحظة نفسها كانت كافية لتقول ما لا يُقال.

قال بصوت ثابتٍ، لا يحمل صخبًا، لكنه يحمل وضوحًا: لن يأتي أحد لينقذنا.

ساد صمت قصير، كأن الجملة احتاجت أن تستقر في النفوس.

تأمل

- بعض القرارات لا تُبنى على حسابات القوة، بل على وضوح الموقف.

ثم أكمل: وإن انتظرنا.. سنلقى نفس المصير.

لم تكن هذه الكلمات جديدة، لكنها جاءت في وقتٍ لم يعد يسمح بتجاهلها.

قال أحدهم، وقد بدا عليه القلق: لكنهم أقوى منا...

نظر إليه قطز، ولم يرفض ما قال، بل أقرَّه: نعم.. أقوى.

ثم سكت لحظة، وأضاف: لكننا إن لم نقف.. سنكون أضعف من أن نحاول.

في تلك اللحظة، لم يعد الحديث عن مقارنة بين قوتين، بل عن موقف يجب أن يُتَّخَذ. لم يعد السؤال: من الأقوى؟ بل: من سيقف؟

لم ترتفع الأصوات، ولم تتحول اللحظة إلى اندفاعٍ صاخب، بل إلى اتفاقٍ صامت. كل واحد عرف ما عليه أن يفعله، لا لأن أحدًا أمره؛ بل لأنه أدرك أن الوقت لم يعد يسمح بالتردد.

وفي هذا الصمت، كان هناك شيء يتشكل.. شيء أكبر من الخوف، وأقوى من التردد: الاستعداد الحقيقي.

• لحظة المواجهة.. وما بعدها:

حين جاءت اللحظة، لم تأتِ صاخبة كما تخيَّلها بعضهم، بل جاءت سريعة، كأنها كانت تنتظر أن يبدءوا فقط. لم يكن هناك وقت طويل للتفكير، ولا فرصة للعودة إلى الوراء، بل تحولت كل المشاعر التي تراكمت في الداخل إلى حركة، وتحول التردد إلى فعل.

تأمل

• ليست المعركة في الخارج فقط، بل تبدأ داخل الإنسان قبل أن تبدأ أمامه.

اندفعت الصفوف، لا بصوتٍ واحد، بل بأنفاس متلاحقة، كأن كل واحد يقاتل ما بداخله قبل أن يواجه ما أمامه. اختلطت الأصوات، ولم يعد يُسمَع منها شيء واضح، إلا وقع الحركة نفسها، كأن الأرض تهتز تحت الأقدام.

وارتفعت سحابة من الغبار، حجبت التفاصيل، فلم يعد يُرى إلا اندفاع الأجساد، كأن المشهد كله يتحرك دفعة واحدة، بلا توقف ولا تراجع.

لم يكن أحد يفكر في الصورة الكاملة، بل في اللحظة التي يعيشها؛ خطوة يتقدم بها، أو ضربة يدفع بها ما يقترب منه. كان بعضهم يتراجع خطوة، ثم يعود، لا لأن الخوف اختفى؛ بل لأنه لم يعد أقوى من قراره.

وفي وسط هذا كله، لم يكن قطز بعيدًا، بل كان حاضرًا بينهم، يتحرك معهم، لا يعلو عليهم، وكأن وجوده يقول دون كلام: نحن في هذا معًا.

ولم يكن ما يحدث مجرد قتال، بل لحظة يتقرر فيها شيء أعمق من النتيجة الظاهرة: هل يبقى ما كانوا عليه.. أم يتغير كل شيء؟

ومع استمرار المواجهة، لم تعد التفاصيل واضحة كما كانت قبلها، بل اختلطت في لحظة واحدة تجمع بين الحركة، والتوتر، والإصرار. لم يكن هناك وقت لمراجعة ما قيل، ولا لإعادة التفكير فيما تقرر، بل كان كل ما حدث قبل هذه اللحظة يتجسد الآن في فعلٍ واحد.

لم يكن الثبات أمرًا سهلًا، ولم يكن التقدم خاليًا من التردد، لكن الفرق الحقيقي كان في أن التردد لم يعد يوقف الحركة. لقد تغيَّر موقعه، من قوة تعطل، إلى شعور يُتجاوز.

وفي هذه اللحظة ظهر الفرق بين من كان يكتفي بالكلام، ومن أصبح جزءًا من الفعل. لم تعد الكلمات هي التي

تُختبَر، بل أصحابها.

ثم، كما بدأت المواجهة سريعًا، بدأت تهدأ تدريجيًّا، لا لأن كل شيء انتهى فجأة؛ بل لأن اللحظة الحاسمة قد مرَّت. لم يعد الصوت كما كان، ولم تعد الحركة بنفس الشدة، لكن ما بقي كان أثقل من كل ما سبق.

• حين ينتهي القتال.. ويبدأ الفهم:

تأمل

- بعض الانتصارات لا تُقاس بما تحققه، بل بما تغيِّره فينا.

لم تكن نهاية المواجهة صاخبة، بل جاءت هادئة على نحوٍ مختلف، كأن الضجيج الذي سبقها استُهلك في الطريق إليها. حلَّ صمتٌ يحمل في داخله تعبًا عميقًا.. وإدراكًا أعمق.

وقف بعضهم ينظر إلى الآخر، كأنهم لا يصدقون ما حدث. لم يكن ما يشغلهم هو ما انتهى، بل ما تغيَّر. لم يفرحوا لأنهم غلبوا عدوًّا فقط؛ بل لأنهم لم يعودوا كما كانوا قبل المواجهة.

لقد تغيَّر شيء في الداخل، شيء لا يُرى، لكنه يُشعَر. استعادوا ثقة كانت تضعف، وأدركوا أن ما بدا مستحيلًا لم يكن كذلك كما ظنوا.

لم تعد الوجوه كما كانت، ولم يعد الخوف هو الشعور الذي يسبق كل شيء. لم تختفِ آثار التعب، لكنها لم تكن علامة ضعف، بل أثر تجربة صنعت أصحابها من جديد.

صاروا يرون الأمور بوضوح مختلف. لم يعد الخطر شيئًا يُهرَب منه، بل شيئًا يمكن مواجهته. لم يتغير العالم كله، لكنهم هم تغيَّروا، وهذا كان كافيًا ليجعل كل شيء يبدو مختلفًا.

• قطز.. بعد اللحظة:

تعلَّم

- بعض الإنجازات لا تكون نهاية، بل بداية لما بعدها.

لم يقف قطز ليعلن ما حدث، ولم يتحدث كثيرًا عن النصر، كأن ما يهمه لم يكن النتيجة وحدها، بل ما تركته في الناس. لم يكن يرى نفسه بطلًا، بل رجلًا فعل ما كان يجب أن يُفعَل.

كان أكثر هدوءًا من قبل، لا لأن مهمته انتهت، بل لأنه أدرك أن ما تحقق ليس نهاية الطريق. لقد بدأ كل شيء بقرار، ثم تحول إلى فعل، والآن أصبح تجربة لا يمكن نسيانها.

نظر إليه أحدهم، وقال بصوت يحمل شيئًا من الدهشة: لقد فعلناها.

لم يُجب قطز فورًا، ثم قال بهدوء: بل بدأنا.

لم تكن الجملة طويلة، لكنها كانت كافية لتفتح معنى أبعد من اللحظة نفسها.

• المعنى الذي بقي:

لم يبقَ من المعركة صوتها، بل معناها. لم تبقَ حركتها، بل أثرها. بقي في النفوس شيء لا يُرى، لكنه يغيِّر طريقة النظر إلى كل ما يأتي بعده. لقد تعلَّموا أن الخوف لا يمنع الفعل، وأن التردد لا يلغي القرار، وأن ما يبدو أكبر من الإنسان قد يتغير حين يواجهه.

لم تكن الحكاية عن معركة فقط، بل عن رحلة بدأت بالخوف، ثم مرَّت بالتردد، ثم وصلت إلى القرار، وانتهت بالفعل. وكل مرحلة كانت ضرورية لما بعدها.

ولو عادوا إلى البداية لوجدوا أن الخطر لم يكن وحده المشكلة، بل ما صنعه في داخلهم من شعور بالعجز. ولو لم يتغير هذا الشعور، لَمَا تغيَّر شيء.

وهنا يظهر الفرق الحقيقي: لم ينتصروا لأن العدو ضعف، بل لأنهم هم تغيَّروا.

فكِّر

• النتائج الكبيرة لا تأتي من خطوة واحدة، بل من سلسلة قرارات صغيرة.

طبّق في حياتك

• حين تواجه موقفًا صعبًا، لا تنتظر أن تتغير الظروف أولًا، بل اسأل: ماذا يمكن أن تغيِّره في نفسك؟

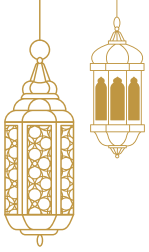

حصاد قراءتي

• أولًا: أفكر

تتبَّع كيف تغيَّرت أحوال الناس مع تصاعد الخطر.. كيف انعكس ذلك على مشاعرهم وسلوكهم؟ كيف تطوَّرت شخصية قطز حتى أصبح قادرًا على تحمُّل المسئولية واتخاذ القرار؟

• ثانيًا: أتأمل

لماذا قد يسيطر الخوف على الناس في بعض الأوقات، حتى قبل أن يواجهوا الخطر فعليًّا؟

ما الذي يجعل إنسانًا واحدًا قادرًا على تغيير مسار جماعة بأكملها؟

• ثالثًا: أناقش

هل كان ما حدث نتيجة حتمية للظروف، أم إن إرادة بعض الشخصيات كان لها دور حاسم في تغيير النتيجة؟ وضِّح رأيك.

في رأيك، هل يمكن للأمم أن تنهض في أوقات الشدة، أم إن الأزمات تضعفها دائمًا؟

• رابعًا: أربط بحياتي

هل مررت بموقف شعرت فيه بالخوف، لكنك اضطررت إلى اتخاذ قرار؟ كيف تعاملت مع هذا الشعور؟

ما الذي تتعلمه من هذه القصة عن دورك حين تواجه موقفًا يحتاج إلى شجاعة ومسئولية؟

• خامسًا: أطبق

تخيَّل أنك في موقف يتطلب منك أن تختار: إما أن تكتفي بالمشاهدة.. أو تتحمل مسئولية الفعل. اكتب في ثلاثة أو أربعة أسطر ما الذي ستختاره، ولماذا؟

• سادسًا: أوظف

حلِّل الأبعاد النفسية والاجتماعية لشخصية الشيخ العز بن عبد السلام كما ظهرت في النص، مستشهدًا بمواقفها وسلوكها في النص.

عبقرية
عمر
عباس محمود العقاد

«عبقرية عمر» ومسيرة العملاق عباس محمود العقاد

نبذة عن حياته ونشأته:

اسمه «عباس محمود العقاد»، أديب ومفكر وشاعر مصري استثنائي، وأحد أعمدة الأدب العربي في القرن العشرين. وُلد في مدينة أسوان (١٨٨٩م)، ولم يحصل من التعليم النظامي إلا على الشهادة الابتدائية، لكنه بنى نفسه بـ «التعلم الذاتي» حتى صار موسوعة تمشي على الأرض. امتلك العقاد كبرياءَ فكريًّا شامخًا وعقلًا جبارًا يحلل الشخصيات والوقائع بعمق فلسفي، فكان يرى أن القراءة ليست مجرد هواية، بل هي «حياة أكثر من حياة واحدة»، وتُوفِّي عام ١٩٦٤م.

المحطات المهمة في حياته:

تُقدِّم مسيرة العقاد دروسًا ملهمة في بناء الشخصية القوية:

- **التعلم الذاتي:**

لم يكمل تعليمه النظامي، بل صنع نفسه بالقراءة ليصبح مفكرًا موسوعيًّا، ليثبت أن الشغف بالمعرفة أهم من أي شهادة.

- **شجاعة الموقف والتجديد:**

شارَك في تأسيس مدرسة «الديوان» لتجديد الأدب، ودخل السجن دفاعًا عن حريته ومبادئه، ليؤكد أن الكلمة أمانة والتطوير يحتاج لجرأة حقيقية.

- **التكريم وكبرياء المفكر:**

حصل على «جائزة الدولة التقديرية» عام ١٩٥٩ كأرفع وسام رسمي، لكنه رفض استلام «الدكتوراه الفخرية» لاعتزازه باسمه المجرد ومجهوده، ليعلمنا أن قيمة الإنسان الحقيقية في علمه ومواقفه لا في الألقاب.

التحديات التي واجهها:

• تحدي التعليم النظامي:

لم يمتلك سوى الشهادة الابتدائية، لكنه قهر هذا النقص بالقراءة المستمرة والموسوعية، ليثبت للشباب أن الإرادة الذاتية تتفوق على غياب الشهادات وتصنع العبقرية.

• تحدي السجن والمعارك الفكرية:

واجه الاعتقال بسبب مواقفه السياسية، وخاض معارك أدبية شرسة دفاعًا عن أفكاره، ليؤكد أن التمسك بالمبادئ وقول الحق يتطلب شجاعة وتضحية حقيقية.

• تحدي القيود والمال:

عانى في بداياته من الفقر ورفض قيود الوظائف الحكومية ليتفرغ لرسالته بقلمه، ليعلمنا أن الإيمان بالشغف والرسالة الفكرية يستحق الصبر والتخلي عن الراحة المؤقتة.

أهم الكتب والمؤلفات:

اشتهر العقاد بسلسلة «العبقريات» التي حلَّل فيها الشخصيات الإسلامية الكبرى، ويعد هذا الكتاب درتها التاجية.

• كتاب «عبقرية محمد»:

دراسة تحليلية رائعة تبرز الجوانب الإنسانية والقيادية والسياسية في شخصية النبي الكريم ﷺ، لتقدم للشباب نموذجًا بشريًّا متكاملًا في الإدارة والتأثير.

• كتاب «التفكير فريضة إسلامية»:

كتاب قيِّم يؤكد فيه العقاد أن إعمال العقل والبحث والتأمل هو واجب أساسي؛ مما يغرس في نفوس الطلاب أهمية التفكير الناقد وعدم الانقياد الأعمى.

• «عبقرية عمر»:

دراسة أدبية تحليلية في سيرة الفاروق عمر بن الخطاب.

وصف العمل الأدبي:

يتكوَّن الكتاب من تقديم و١٢ فصلًا، وهي بالترتيب: (تقديم، عبقريٌّ، رجلٌ ممتازٌ، صِفاتُه، مِفتاحُ شخصيتِهِ، إسلامُه، عمرُ والدولةُ الإسلاميةُ، عمرُ والحكومةُ العصرية، عمرُ والنبي ﷺ، عمرُ والصحابة، ثقافة عمر، عمر في بيته، صورة مجملة).

صدرت الطبعة الأولى من كتاب «عبقرية عمر» للأديب عباس محمود العقاد عام ١٩٤١م (وفي بعض المصادر ١٩٤٢م). وتتعدد طبعات الكتاب بين دور النشر المختلفة ويختلف عدد صفحاته من دار نشر لأخرى.

• فكرة العمل:

لا يكتفي العقاد بسرد التاريخ، بل يبحث عما وراء الأحداث؛ فيسأل: «ما الذي جعل عمر يفعل ما فعل؟». والدراسة الأدبية التحليلية هنا هي رحلة لاكتشاف «سر العظمة»، وكيف يجتمع الحزم والعدل والرحمة في نفس واحدة.

• أبرز القيم التي يعالجها:

العدل أساس الحكم، قوة المبدأ، المسئولية في القيادة، التوازن بين الحزم والرحمة.

• ملاحظة قبل القراءة

هذا الكتاب لا يحكي قصة فقط، بل يدعوك إلى التفكير في معنى العظمة، وهل تكون في القوة وحدها أم في طريقة استخدام هذه القوة؟

• تمهيد:

لماذا كتب العقاد عن عمر؟

لم يكن عباس محمود العقاد من الكُتَّاب الذين يكتفون بسرد الوقائع، بل كان مفكرًا يحاول أن يفهم الإنسان وراء الحدث، وأن يصل إلى السر الذي يجعل بعض الشخصيات تبقى في التاريخ بينما تختفي غيرها.

من كلمات العقاد

• «وكانت قوة عمر هي التي ساقته إلى الحق؛ لأنه لم يكن ضعيفًا فيضل، بل كان قويًا فيرجع إلى الصواب».

كان يرى أن الأحداث لا تفسِّر نفسها، وأن فهم التاريخ لا يتحقق بحفظ الوقائع، بل بفهم طبائع الرجال الذين صنعوها؛ ولذلك لم يسأل: ماذا فعل عمر؟ بل سأل: كيف كان عمر؟

ومن هنا بدأ العقاد طريقه في هذا الكتاب، فلم يتتبع حياة عمر خطوةً خطوةً، بل حاول أن يقترب من داخله، من طريقته في التفكير، ومن القوة التي كانت تحرك قراراته، ومن الضمير الذي كان يوجه سلوكه.

• عمر قبل أن يكون عظيمًا:

لم يُولَد عمر بن الخطاب عظيمًا كما عرفه الناس بعد ذلك، بل نشأ في بيئة تقوم على القوة والهيبة والانتماء إلى القبيلة، وكان منذ شبابه قوي الشخصية، واضح الرأي، لا يعرف التردد إذا اقتنع بشيء.

وقفة مع قدوة

• العظمة لا تعني أن يولد الإنسان كاملًا، بل أن يمتلك الشجاعة ليُغيِّر نفسه عندما يكتشف الحقيقة.

وكانت هذه القوة نفسها هي التي جعلته في بداية الأمر يقف موقفًا شديدًا من الدعوة الجديدة؛ لأنه لم يكن من طبيعة عمر أن يغيِّر رأيه بسهولة، ولا أن يتخلى عما يراه صوابًا دون قناعة.

• اللحظة التي تغيَّر فيها كل شيء:

لكن حياة عمر لم تظل على حالها، فقد جاءت لحظة قصيرة في ظاهرها، لكنها كانت نقطة تحوُّل في حياته كلها، ولم تكن هذه اللحظة منصبًا ولا انتصارًا، بل كانت فكرة دخلت إلى عقله وقلبه في وقت واحد.

تأمل

• في لحظات الصدق تتحول الحقيقة إلى قوة تقودنا إلى الصواب.

حين سمع شيئًا من القرآن توقف، ولم يكن ما يسمعه كأي كلام عرفه من قبل، بل كان فيه صدق وقوة ووضوح جعلته يعيد التفكير في كل ما كان يؤمن به.

وفي تلك اللحظة لم ينتصر العناد، بل انتصرت الحقيقة، ولم تمنعه قوته من أن يُغيِّر موقفه، بل كانت هذه القوة نفسها هي التي قادته إلى الصواب.

• بداية التحول:

لم يفقد عمر قوته بعد إسلامه، بل تغير اتجاهها، فأصبحت قوة في نصرة الحق بعد أن كانت قوة في مقاومته، وهنا تبدأ أولى ملامح العبقرية التي يتحدث عنها العقاد، وهي قدرة الإنسان على أن يوجِّه طاقته كلها في الاتجاه الصحيح عندما يدرك الحقيقة.

تعلَّم

• يرى العقاد أن العبقرية ليست في الذكاء فقط، بل في قدرة الإنسان على توجيه نفسه حين يكتشف الصواب.

لم تكن هذه إلا بداية الطريق، فعبقرية عمر لم تظهر في لحظة التحول فقط، بل ظهرت حين أصبح مسئولًا عن الناس، وهنا سنرى كيف تحولت صفاته الشخصية إلى نظام عادل يحكم أمة كاملة.

• العدل: الصفة التي لخصت شخصيته:

إذا ذُكر عمر بن الخطاب، لم يحتج الناس إلى شرح طويل ليصفوه، فقد كَفَتْهم كلمة واحدة هي العدل، ولكن العقاد لا يكتفي بهذه الكلمة، بل يتوقف عندها ليفهم معناها الحقيقي في شخصية عمر، ويسأل: هل كان عمر عادلًا لأنه حاكم، أم كان حاكمًا لأنه عادل؟

ولم يكن العدل عند عمر حادثة عارضة، بل كان طبيعة راسخة لا تتغير بتغير الظروف، فلم يكن صفة ظهرت بعد توليه السلطة، بل كان جزءًا من تكوينه منذ البداية، وكان حاضرًا في طريقته في التفكير قبل أن يظهر في طريقة حكمه؛ ولذلك لم يكن عدله قائمًا على القوانين وحدها، بل على إحساس داخلي لا يقبل الظلم.

• العدل قبل الخلافة:

لم يبدأ عدل عمر يوم أصبح خليفة، بل كان واضحًا في شخصيته من قبل، فقد كان رجلًا لا يقبل الانحراف عن الحق، ولا يرضى أن يرى ظلمًا ويسكت عليه، وكان إذا اقتنع بشيء تمسك به، لا يغيِّره خوفًا من الناس ولا طمعًا في رضاهم.

وكانت هذه الصفات هي التي جعلت موقفه قويًّا في كل مرحلة من حياته؛ لأنه لم يكن يتبع الناس، بل كان يتبع ما يراه صوابًا، وهذه هي أولى علامات الشخصية التي تستطيع أن تُقِيم العدل.

• حين أصبح مسئولًا:

فلما تولى عمر الخلافة لم يرَ في ذلك مكانة يفتخر بها، بل رأى فيها مسئولية ثقيلة، وشعر أنه أصبح مسئولًا عن كل إنسان في دولته، لا عن القريب منه فقط، بل عن كل مَن يعيش تحت حكمه.

وكان هذا الشعور هو الذي يوجه قراراته، فلم يكن يسأل نفسه: ماذا أريد؟ بل كان يسأل: ماذا يجب أن يكون؟ وكان يرى أن الحاكم إذا انشغل بنفسه ضاع الناس، وإذا انشغل بالناس استقامت الأمور.

• عدل لا يعرف التمييز:

تعلَّم

- من أهم ما يُميِّز عدل عمر أنه عدل شامل لا يستثني أحدًا، ولا يتغير بتغير الأشخاص أو الظروف.

لم يكن عدل عمر يُفرِّق بين الناس، فلا مكان فيه لتمييز بسبب قوة أو نَسَب أو مكانة، وكان يرى أن الناس جميعًا سواء أمام الحق، وأن أي تفضيل بينهم هو بداية للظلم؛ ولهذا كان يقف موقفًا حازمًا من ولاته، فلا يسمح لأحد منهم أن يستغل سلطته، وكان يعتبر نفسه مسئولًا عن أفعالهم كما هو مسئول عن أفعاله.

• موقف يكشف حقيقة العدل:

ومن المواقف التي تكشف طبيعة عدل عمر ما حدث حين ظن أحد أبناء الولاة أن مكانته ستحميه من المحاسبة، فاعتدى على إنسان ضعيف، فلما وصل الأمر إلى عمر لم ينظر إلى اسم الفاعل ولا إلى مكانته، بل نظر إلى الفعل نفسه، وأعاد الحق إلى صاحبه، وأثبت أن العدل لا يخضع لقوة ولا لسلطة.

وكان هذا الموقف رسالة واضحة لكل مَن يعيش في دولته، أن الحق لا يتغير بتغير الأشخاص، وأن القانون لا يُطبَّق على الضعيف وحده.

• العدل والضمير:

وقفة مع قدوة

- القائد الحقيقي لا يكتفي بأن يكون عادلًا في قراراته، بل يسعى إلى التأكد من أن هذا العدل يصل إلى كل إنسان.

لكن أعجب ما في عدل عمر أنه لم يكن يطمئن إلى نفسه، بل كان دائم الخوف من التقصير، وكان يشعر أن أي ظلم يقع في دولته هو مسئول عنه، حتى لو لم يكن هو الذي ارتكبه.

وكان هذا الشعور هو الذي يجعله يسهر على شئون الناس، ويسأل عن أحوالهم، ويتابع تفاصيل حياتهم؛ لأنه كان يرى أن العدل لا يتحقق بالقرارات فقط، بل بالمتابعة المستمرة.

• لماذا كان عدله مختلفًا؟

يرى العقاد أن عدل عمر لم يكن مجرد نظام، بل كان نتيجة اجتماع ثلاثة أمور في شخصيته، وهي (قوة الشخصية، ووضوح المبدأ، وحضور الضمير)، وهذه العناصر الثلاثة إذا اجتمعت في إنسان جعلت العدل ثابتًا لا يتغير، وإذا غاب أحدها اختل الميزان.

وهكذا لم يكن العدل عند عمر صفة من صفاته فقط، بل كان هو الأساس الذي قامت عليه شخصيته كلها؛ ولهذا لم يذكره الناس بالحكم وحده، بل ذكروه بالعدل الذي عاشه في كل موقف من مواقفه.

• عمر القائد: قوة الحكم وبساطة الإنسان:

لم يكن عمر بن الخطاب قائدًا بالمعنى الذي تعوَّد الناس أن يرَوه في التاريخ، فقد اعتادوا أن يروا القائد بعيدًا عن الناس، يعيش في مكان مرتفع، وتحيط به مظاهر السلطة، لكن (عمر) قدَّم صورة مختلفة تمامًا للقيادة، صورة تقوم على القرب من الناس لا الابتعاد عنهم.

يرى العقاد أن القيادة الحقيقية لا تقوم على السيطرة، بل على الفهم، وأن القائد الذي لا يعرف أحوال الناس لا يستطيع أن يحكمهم بالعدل؛ ولهذا لم يكن عمر يعتمد على التقارير وحدها، بل كان يحرص على أن يرى بنفسه، ويسمع بنفسه، ويشعر بما يشعر به الناس.

• إدارة دولة واسعة:

تعلَّم

- يمثل إنشاء الدواوين خطوة مبكرة نحو بناء دولة منظمة تعتمد على النظام لا على الاجتهاد الفردي، حيث تُسجَّل فيها الحقوق والواجبات، وتُدار بها موارد الدولة بطريقة دقيقة.

في عهد عمر اتسعت الدولة الإسلامية اتساعًا كبيرًا، ودخلت تحت حكمها أراضٍ وشعوبٌ متعددة، وكان هذا الاتساع يفرض تحديات كبيرة؛ لأن إدارة هذه المساحات الواسعة تحتاج إلى تنظيم دقيق، وعدل ثابت، ورؤية واضحة.

لم يتعامل عمر مع هذا التوسع بوصفه انتصارًا فقط، بل نظر إليه بوصفه مسئولية، فبدأ في تنظيم شئون الدولة، وأنشأ الدواوين، وحدَّد نظامًا لإدارة المال، واختار ولاته بعناية، وكان يراقب أداءهم بمتابعة مستمرة.

• القائد الذي يرى بنفسه:

وقفة مع قدوة

- القيادة ليست أوامر تُعطى من بعيد، بل هي مسئولية تبدأ بالفهم الحقيقي للواقع.

لم يكن عمر يكتفي بما يُقال له، بل كان يرى أن الحقيقة لا تُعرف كاملة من خلال التقارير؛ ولذلك كان يخرج بنفسه ليتفقد أحوال الناس، ويسير في شوارع المدينة، ويراقب الحياة كما هي، لا كما تُعرَض عليه.

وكان هذا السلوك يعكس فهمًا عميقًا لطبيعة القيادة، فالقائد الذي يرى الواقع بعينه يكون أقدر على اتخاذ القرار الصحيح من القائد الذي يعتمد على ما يُنقل إليه فقط.

• موقف يكشف إنسانيته:

ومن المواقف التي تكشف جانبًا مهمًّا من شخصية عمر، أنه خرج يومًا ليتفقد أحوال الناس، فوجد أسرة تعاني من الجوع، وكانت الأم تحاول أن تُسكت أطفالها بوهم الطعام، فلما علم عمر بذلك لم يكتفِ بالأمر أو التوجيه، بل حمل بنفسه ما يسد حاجتهم، وشارك في إعداد الطعام لهم.

هذا الموقف لم يكن مجرد تصرف إنساني، بل كان تعبيرًا عن فهمه لدوره، فهو لم يرَ نفسه حاكمًا فقط، بل مسئولًا عن كل محتاج في دولته.

• الحزم والرحمة:

قد يظن بعض الناس أن الحزم يتعارض مع الرحمة، لكن شخصية عمر تقدم مثالًا مختلفًا، فقد كان حازمًا في الحق، لا يتهاون فيه، لكنه في الوقت نفسه كان رحيمًا بالناس، يشعر بضعفهم، ويسعى إلى مساعدتهم.

ويرى العقاد أن هذه القدرة على الجمع بين الحزم والرحمة هي من أهم أسرار القيادة الناجحة؛ لأن الحزم يحفظ النظام، والرحمة تحفظ إنسانية المجتمع.

وقفة مع قدوة

• القائد الناجح لا يكون قاسيًا دائمًا ولا لينًا دائمًا، بل يعرف متى يكون حازمًا ومتى يكون رحيمًا.

• بساطة لا تُفقِد الهيبة:

رغم اتساع الدولة وقوة السلطة، ظل عمر يعيش حياة بسيطة، ولم يسمح للمظاهر أن تفصله عن الناس، وكان يرى أن قيمة القائد لا تُقاس بما يملك، بل بما يقدمه من عدل وخدمة.

وقد كانت هذه البساطة تزيد من هيبته في نفوس الناس؛ لأنهم كانوا يرون فيه صدقًا حقيقيًّا، لا مجرد صورة للحاكم.

• لماذا نجحت قيادته؟

يرى العقاد أن نجاح عمر في القيادة لم يكن نتيجة صفة واحدة، بل نتيجة مجموعة من الصفات التي تكاملت في شخصيته، ومنها: قوَّة الشخصية ووُضوح المبدأ وحضور الضمير.

وهذه الصفات جعلته قادرًا على إدارة دولة واسعة دون أن يفقد التوازن بين السلطة والعدل.

وهكذا لم تكن قيادة عمر قائمة على القوة وحدها، بل كانت قائمة على فهم عميق للإنسان، وعلى شعور دائم بالمسئولية؛ ولهذا بقي نموذجًا للقائد الذي يجمع بين القدرة على الحكم والقدرة على الحفاظ على إنسانية المجتمع.

• سر العبقرية: لماذا كان عمر مختلفًا؟

لم يكن هدف العقاد من هذا الكتاب أن يعدد صفات عمر بن الخطاب أو يذكر مواقفه فقط، بل كان يريد أن يصل إلى شيء أعمق من ذلك؛ وهو أن يفهم سر هذه الشخصية التي بقيت حية في التاريخ، بينما اختفت أسماء كثيرة غيرها.

ولهذا لم يسأل: ما الذي فعله عمر؟ بل سأل: ما الذي جعله يفعل ما فعل؟

يرى العقاد أن العبقرية لا تعني الذكاء وحده، ولا القوة وحدها، بل تعني اجتماع صفات متعددة في إنسان واحد بطريقة متوازنة، بحيث لا تطغى صفة على أخرى، ولا تفقد الشخصية انسجامها.

تعلَّم

• العبقرية عند العقاد ليست موهبة واحدة، بل هي تكامل بين: العقل، والإرادة، والضمير.

• قوة الشخصية:

كان عمر واضح الشخصية إلى درجة نادرة، فلم يكن يعرف التردد إذا تبين له الحق، ولم يكن يتراجع خوفًا من الناس، وكان يرى أن التردد في موضع الحسم قد يؤدي إلى ضياع العدل.

لكن هذه القوة لم تكن عنادًا، بل كانت مرتبطة دائمًا بالبحث عن الصواب؛ ولذلك كان مستعدًّا لتغيير رأيه إذا ظهر له أن الحق في جانب آخر.

• العقل الذي يفكر:

لم يكن عمر يعتمد على القوة وحدها، بل كان يفكر في الأمور بعقل مفتوح، ويستشير مَن حوله، وكان يدرك أن الرأي الواحد قد يخطئ، وأن المشاورة تساعد على الوصول إلى الصواب.

وكانت هذه القدرة على التفكير العملي من أهم أسباب نجاحه؛ لأنه لم يكن يتخذ قراراته على أساس الانفعال، بل على أساس الفهم.

• الضمير الذي يُوجِّه:

لكن أهم ما يميز شخصية عمر في نظر العقاد هو حضور الضمير، فقد كان يشعر أن كل قرار يتخذه سيحاسب عليه، وكان هذا الشعور يجعله حريصًا على العدل، وخائفًا من التقصير.

وكان الضمير عنده ليس فكرة نظرية، بل قوة حقيقية تؤثر في سلوكه، وتمنعه من الظلم، وتدفعه إلى تحمل المسئولية.

وقفة مع قدوة

• الإنسان الناجح ليس مَن يملك صفة واحدة قوية، بل مَن يستطيع أن يوازن بين صفاته.

• التوازن بين الصفات:

يرى العقاد أن سر عبقرية عمر لا يكمن في صفة واحدة، بل في التوازن بين صفاته، فقد جمع بين قوَّة الشخصية ووُضوح المبدأ وحضور الضمير، وبين القيادة

والتواضع، وهذا التوازن هو الذي جعله قادرًا على التعامل مع المواقف المختلفة دون أن يفقد ثباته.

فلو غلبت القوة وحدها لتحولت إلى قسوة، ولو غلبت الرحمة وحدها لتحولت إلى ضعف، لكن اجتماع الاثنين هو الذي صنع شخصية متكاملة.

• لماذا بقي أثره؟

مرَّ في التاريخ كثير من القادة، لكن قليلًا منهم مَن بقي أثره حيًّا، ويرى العقاد أن عمر بن الخطاب بقي؛ لأنه لم يكن قائدًا في زمانه فقط، بل كان نموذجًا يمكن أن يُحتذى في كل زمان.

فقد قدَّم مثالًا للإنسان الذي يستخدم قوته في خدمة الحق، ويجعل من السلطة وسيلة لتحقيق العدل، لا وسيلة لتحقيق مصلحته.

• النهاية:

وهكذا يصل العقاد إلى خلاصة فكرته، وهي أن عظمة عمر لم تكن في منصبه، ولا في اتساع دولته، بل في شخصيته التي جمعت بين قوَّة الشخصية ووُضوح المبدأ وحضور الضمير؛ ولهذا بقي اسمه مرتبطًا بالعدل، لا لأنه قاله؛ بل لأنه عاشه، ولم يكن العدل عنده شعارًا، بل كان سلوكًا يوميًّا في حياته كلها.

وهنا ينتهي الحديث عن عمر، لكن يبدأ الحديث عن أنفسنا: كيف نكون عادلين كما كان؟

حصاد قراءتي:

• أولًا: أفكر

تتبَّع ملامح شخصية عمر بن الخطاب كما ظهرت في النص.. ما الصفات التي بدت واضحة في مواقفه؟

كيف انعكست هذه الصفات على طريقته في الحكم والتعامل مع الناس؟

• ثانيًا: أتأمل

كيف يمكن للقوة أن تكون وسيلة لتحقيق العدل، لا أداة للظلم؟

ما الذي يجعل الإنسان قادرًا على أن يكون حازمًا وعادلًا في الوقت نفسه؟

• ثالثًا: أناقش

- هل ترى أن العدل يعتمد على القوانين وحدها، أم على شخصية مَن يُطبِّقها أيضًا؟ وضِّح رأيك.

• رابعًا: أوظف

وازِن بين قصة «وا إسلاماه» و«عبقرية عمر»، من حيث مفهوم القيادة وسمات القائد.

د. مصطفى محمود
رجل تحت الصفر
NEXT GEN
NEXT

«رجل تحت الصفر» ومسيرة المفكر الدكتور مصطفى محمود

نبذة عن حياته ونشأته:

اسمه «مصطفى محمود»، طبيب وأديب ومفكر مصري بارز، اشتهر بقدرته الفريدة على الجمع بين العلم والإيمان، وُلد في مطلع العشرينيات (١٩٢١م)، وبدأ حياته بدراسة الطب، لكن شغفه بالبحث عن الحقيقة قاده إلى عالم الأدب والفلسفة، لم يكن مجرد كاتب يروي القصص للتسلية، بل كان مفكرًا يطرح أسئلة وجودية عميقة حول الكون والإنسان. قدَّم للمكتبة العربية أكثر من ٨٠ كتابًا، بالإضافة إلى برنامجه الشهير «العلم والإيمان»؛ ليصبح جسرًا يربط بين الحقائق العلمية والقيم الروحية، وملهمًا للأجيال في كيفية إعمال العقل، وتُوفي عام ٢٠٠٩م.

المحطات المهمة في حياته:

تُقدِّم مسيرة مصطفى محمود دروسًا عملية في بناء الشخصية الواعية:

- **سر التساؤل المستمر:**

لم يقبل مصطفى محمود بالمعلومات السطحية، بل كان دائم البحث والتساؤل، يعلمنا أن القراءة والبحث هما الطريق الوحيد لفهم النفس والعالم.

- **المسئولية العلمية:**

آمن بأن العلم بدون «وعي» أو «ضمير» قد يتحول إلى أداة مدمرة. وهذا درس هام للشباب في عصر التكنولوجيا: القوة التي يمنحها لنا العلم تحتاج إلى حكمة لتوجيهها.

- **تطوير الأدوات:**

بدأ كطبيب، ثم صحفي، ثم كاتب، ثم مقدم برامج. لم يتوقف عند تخصص واحد، بل طوَّر أدواته ليوصل رسالته بأفضل شكل ممكن، وهو ما يجسد أهمية «التعلم مدى الحياة».

التحديات التي واجهها:

• تحدي تغيير المسار:

درس الطب ومارسه لسنوات، لكنه واجه بشجاعة قرار التخلي عن مهنته المرموقة والمستقرة ليتفرغ لشغفه الحقيقي بالكتابة والبحث الفكري، ليُعلِّم الشباب أن النجاح الحقيقي يبدأ حين يكتشف الإنسان شغفه ويختار الطريق الذي يعبر عن إمكانياته.

• تحدي البحث عن الحقيقة:

لم يقبل بالأفكار السطحية أو الجاهزة، بل خاض رحلة فكرية شاقة من القراءة والتأمل في مختلف العلوم حتى وصل إلى اليقين؛ ليؤكد أن بناء القناعات الراسخة يتطلب إعمال العقل، والصبر، والبحث الدءوب.

• تحدي تبسيط العلوم:

أخذ على عاتقه مهمة تحويل النظريات العلمية والكونية المعقدة إلى مادة سهلة وممتعة يفهمها الجميع عبر برنامجه الشهير «العلم والإيمان»؛ ليثبت أن قيمة العلم تكتمل حقًّا حين ننجح في توصيله للناس وننفع المجتمع به.

أهم الكتب والمؤلفات:

تنوعت أعماله بين الكتب العلمية، والفلسفية، والروايات، وتعتبر «رجل تحت الصفر» نموذجًا فريدًا لأدبه، ومن أهم أعماله:

• كتاب «أينشتاين والنسبية ١٩٦١»:

يَستعرض كيف قلبَت النظرية النسبية المفاهيم التقليدية للكون؛ حيث تحوَّل الزمان والمكان من كيانات منفصلة إلى نسيج مترابط يُعرَف بالزمكان، وأصبحت الحركة والقياسات نسبية للمراقب؛ ممَّا أحدث ثورة في الفَهْم العلمي.

• رحلتي من الشك إلى الإيمان:

كتاب يروي فيه تجربته الشخصية في البحث عن الحقيقة، وكيف يمكن للعلم والتفكير المتأمل أن يكونا طريقًا للوصول إلى الإيمان العميق.

• «رجل تحت الصفر»:

رواية خيال علمي، كتبت في القرن العشرين، وصدرت عام ١٩٦٦م.

وصف العمل الأدبي:

• فكرة العمل:

تطرح الرواية تصورًا مستقبليًّا لعالم بلغ فيه العلم درجة السيطرة على وظائف الجسد؛ حيث يصبح الإنسان قادرًا على إيقاف حياته مؤقتًا (بالتجميد) ثم العودة منها.

• القيم الأساسية:

التفكير وعدم الانبهار الأعمى بالتقدم،المسئولية في استخدام العلم، أهمية التساؤل قبل اتخاذ القرار، إدراك حدود القدرة الإنسانية، التوازن بين العلم والضمير.

• ملاحظة قبل القراءة:

هذه القصة ليست مجرد خيال علمي، بل دعوة للتفكير في واقعنا، وفي الطريقة التي نستخدم بها ما نملكه من معرفة، فالعلم يمنح الإنسان قدرة كبيرة، لكن هذه القدرة تحتاج إلى وعي يوجهها.

• تمهيد:

لم يكن مصطفى محمود كاتبًا يروي الحكايات للتسلية، بل كان مفكرًا يكتب؛ لأن في داخله سؤالًا لا يهدأ، وكان يرى أن القصة وسيلة لفهم الإنسان، والاقتراب من تلك المنطقة التي يلتقي فيها العلم بالحياة.

ولهذا بدت قصصه بسيطة في ظاهرها، لكنها تحمل أفكارًا تدعو القارئ إلى التوقف والتفكير، لا إلى الاكتفاء بمتابعة الأحداث.

وفي هذه القصة لا يأخذنا إلى الماضي، بل يدفعنا إلى مستقبل يتغير بسرعة، حيث لم يعد العلم وسيلة لتحسين الحياة فقط، وأصبح الإنسان لا يكتفي بفهم ما يحدث حوله، بل يسعى إلى فهم ما يحدث داخله، وكأن العلم لم يعد يغيِّر العالم فقط، بل بدأ يغيِّر نظرة الإنسان إلى نفسه.

• رحلة إلى المستقبل:

كان الصباح هادئًا، لكن الرحلة لم تكن عادية، فلم تكن طائرة تقل ركابًا، بل كانت صاروخًا يشق السماء بسرعة لم يألفها الإنسان، يهتز اهتزازًا خفيفًا منتظمًا، وتنساب من نوافذه خطوط السحب كأنها تنسحب إلى الخلف، بينما يبدو الأفق بعيدًا على نحو لم يعتده البشر.

جلس بداخله رجلان متقابلان، متشابهان في الملامح والهدوء، وكأن كلًّا منهما يرى في الآخر صورة منه، وكان الصمت بينهما ممتلئًا بالتفكير، حتى نظر أحدهما من النافذة وقال: لقد تغيَّر العالم كثيرًا.

لم تكن الجملة عابرة، بل كانت بداية حديث يحاول أن يفهم هذا التغير.

• العالم الجديد:

لم تعُد المسافات عائقًا، ولم يعد الزمن يسير كما عرفه الناس، بل أصبح كل شيء أسرع وأكثر دقة، فلم تعد الرحلة تحتاج إلى أيام، ولا القرار يحتاج إلى وقت طويل، وأصبح الإنسان ينجز في لحظات ما كان يستغرق سنوات، حتى ظن أنه تجاوز حدود ما كان ممكنًا.

لكن هذا التقدم لم يكن بلا قلق، فكل خطوة كانت تفتح سؤالًا جديدًا.

قال أحدهما: لقد وصل الإنسان إلى ما لم يتخيله.. لكنه لم يسأل: إلى أين يسير؟

وقفة

- المشكلة ليست في التقدم، بل في اتجاهه؛ فالتقدم في ذاته لا يضمن الخير، وإنما تتحدد قيمته بما يحققه للإنسان، وبالغاية التي يُسخَّر من أجلها.

• بداية السؤال:

لم يعُد الحديث وصفًا للعالم، بل أصبح محاولة لفهمه، فقد استطاع الإنسان أن يغير حياته، لكنه لم يسأل: هل أصبح أفضل؟

وكان هذا السؤال كافيًا ليغيِّر مسار الحديث كله.

لمحة

- السؤال الجيد لا يقدِّم إجابة جاهزة، بل يفتح باب التفكير، ويدفع العقل إلى البحث، ويقود صاحبه إلى فهم أعمق مما كان يظن.

• تمهيد لما هو أخطر:

لم يكن ما قيل نهاية الطريق، بل بدا مقدمة لشيء أكبر، فالعلم الذي غيَّر شكل الحياة بدأ يقترب من التحكم فيها. وهنا بدأت الفكرة الحقيقية في الظهور.

• حين اقترب العلم من حدود الحياة:

لم يعُد الحديث في الصاروخ محرد وصف لعالم متغير، بل أصبح مدخلًا إلى فكرة أكثر حرأة، فقد بدأ العلم يقترب من شيء لم يكن يحرؤ على الاقتراب منه من قبل.

تأمل

- إذا كان الزمن هو ما يجعلنا نعيش ونتغير، فماذا يحدث إذا تدخل الإنسان فيه؟

لم يعُد السؤال: كيف نعيش حياة أفضل؟ بل: ما الحياة نفسها؟

قال أحد الرحلين: لقد أصبح العلم قادرًا على التدخل في أشياء لم يكن الإنسان يتخيلها، ثم توقف قليلًا وأضاف: بل أصبح يفكر في شيء أخطر. نظر إليه الآخر باهتمام وقال: ماذا تقصد؟

قال: لم يعُد العلم يلاحظ الزمن فقط، بل بدأ يحاول أن يتحكم فيه.. داخل حسد الإنسان.

وقفة

- حين يقترب العلم من تشبيه الإنسان بالآلة، يصبح من الضروري أن نعيد التفكير في معنى الإنسان.

• الفكرة التي لم تكن تُقال:

لم تكن هذه الفكرة حديدة تمامًا، لكنها لم تكن تُطرح بهذا الوضوح، فقد كان الإنسان يسعى دائمًا إلى إطالة حياته، وتأخير المرض، لكنه الآن يطرح سؤالًا مختلفًا: هل يمكن إيقاف الحياة دون أن تنتهي؟ هل يمكن أن يتوقف الحسد، ثم يعود إلى العمل من حديد؟ قال أحدهما: كأننا نضغط زرًّا فنوقف كل شيء، ثم نضغطه مرة أخرى فتعود الحياة.

لكن السؤال ظل قائمًا: هل الإنسان آلة يمكن التحكم فيها بهذه الصورة؟

نافذة على الفكرة

- التقدم العلمي لا يحدث فجأة، بل هو نتيجة محاولات متكررة تقرِّب الإنسان من الفهم.

• بداية التجارب:

لم تظل الفكرة محرد حديث، فقد بدأ العلماء بالفعل في تحويلها إلى تحربة، وكانت البداية بمحاولة فهم تأثير انخفاض الحرارة على الحسد. كان معروفًا أن بعض الكائنات تدخل في حالة سكون عند البرودة، ثم تعود إلى نشاطها، لكن تطبيق ذلك على الإنسان كان أمرًا مختلفًا.

بدأت التحارب بحذر؛ بهدف إبطاء وظائف الحسد دون إيقافها، ثم تطورت الفكرة نحو إيقاف هذه الوظائف بالكامل، ثم محاولة إعادتها؛ حيث أصبح العلماء يراقبون أدق التغيرات في نبض القلب، ونسبة الأكسجين، واستحابة الخلايا، وكأنهم يتتبعون خيطًا رفيعًا يفصل بين الحياة والسكون.

لم يكن الطريق سهلًا، فقد واجهت التجارب صعوبات وأخطاء، لكن كل محاولة كانت تقرِّب العلماء خطوة من الهدف.

• القرار:

مع تطور الأبحاث، أصبح من الضروري إجراء تجربة كاملة على إنسان، وهنا لم يعد الأمر علميًا فقط، بل أصبح إنسانيًا وأخلاقيًا.

مَن سيقبل أن يخوض هذه التحربة؟

مَن سيضع نفسه بين الحياة والتوقف؟

في النهاية تم اختيار رحل يدرك ما سيخوضه، ويعلم أنه يدخل منطقة محهولة، وقد لا يعود منها، ومع ذلك وافق.

لم يكن دافعه واضحًا تمامًا، لكنه كان مستعدًّا لخوض التجربة.

وقفة

• الشجاعة ليست في مواجهة الخطر فقط، بل في الإقدام على ما لا نعرف نتائجه.

• ما قبل اللحظة:

بدأت الاستعدادات، وأصبحت التحربة واقعًا ينتظر التنفيذ، وكانت كل التفاصيل محسوبة بدقة، لكن رغم ذلك ظل هناك شيء لا يمكن التحكم فيه.

كان هناك محهول، ذلك الحزء الذي لا يمكن قياسه أو التنبؤ به، وهو ما يحعل التحربة أكثر من محرد تحربة علمية.

لمحة

• كلما اقترب الإنسان من حدود جديدة، زاد ما لا يعرفه، واتسعت أمامه مساحة الأسئلة، فأدرك أن المعرفة ليست نهاية، بل بداية لطريق أطول من الفهم.

• تمهيد لما سيحدث:

لم يعُد هناك مجال للتراجع، فقد أصبح كل شيء جاهزًا، ولم يتبقَّ سوى لحظة واحدة تفصل بين الفكرة والتجربة، لحظة سيبدأ فيها كل شيء.. أو يتوقف كل شيء، وهنا نقترب من أخطر لحظة في القصة: لحظة النزول إلى ما تحت الصفر.

• لحظة التجميد.. حين سكن كل شيء:

لم تكن اللحظة المنتظرة لحظة عادية، فقد كانت نتيحة سنوات من التحربة، وبداية لشيء لم يحدث من قبل، وكان كل شيء في مكانه، والأجهزة تعمل بدقة، والعيون تتابع في صمت.

أما الرحل، فكان هادئًا على نحو يثير الدهشة، وكأنه تحاوز الخوف، ولم يعد يفكر فيما سيحدث، بل تقبَّله. نظر حوله نظرة أخيرة، ثم استلقى، وبدأت التحربة.

إضاءة

• في هذه اللحظة لا يكون التحدي في العلم وحده، بل في الإنسان الذي يقبل خوض التجربة.

• البداية البطيئة:

بدأت درجة الحرارة تنخفض تدريجيًا، دون صدمة، وكأن الجسد يُقاد إلى السكون بهدوء، وبدأت الوظائف الحيوية تتباطأ، فضعف النبض، وهدأ التنفس.

لم يكن هذا نومًا، بل بداية حالة مختلفة.

تأمل

- هل الفرق بين النوم والموت مجرد درجة، أم أن هناك فرقًا لا نراه؟ وهل ما يبدو سكونًا واحدًا يخفي في داخله معاني مختلفة لا يدركها الإنسان بسهولة؟

• الاقتراب من الصفر:

استمر الانخفاض، وبدأ الجسد يفقد قدرته على الحركة، حتى اقترب من السكون الكامل، وكانت الأجهزة تشير إلى أرقام لم يصل إليها إنسان من قبل. ثم وصلت الحرارة إلى ما تحت الصفر، وفي تلك اللحظة، لم يسكن الجسد وحده، بل سكن المكان كله، وكأن الهواء نفسه توقف عن الحركة، وكأن الزمن لم يعد يمر. وفي تلك اللحظة.. لم يعد هناك صوت أو حركة .. كأن الزمن توقف.

لمحة

- أخطر ما في التجربة ليس ما نراه، بل ما لا نستطيع أن نراه؛ فبعض الجوانب الخفية قد تحمل من التأثير ما يفوق ما يظهر أمامنا.

• السكون الكامل:

لم يعُد هناك نبض أو استجابة، وكان الجسد ساكنًا تمامًا، لكن العلماء لم يروا في ذلك موتًا، بل مرحلة من التجربة. وهنا ظهر السؤال: هل توقفت الحياة فعلًا، أم أنها موجودة بطريقة لا نفهمها؟

• داخل التجربة:

نافذة على الفكرة

- العلم يفسر ما يراه، لكنه لا يحيط بكل ما يحدث داخل الإنسان، فهناك جوانب خفية تتجاوز ما يمكن قياسه أو تفسيره بسهولة.

لم يكن أحد يعرف ما يحدث داخل الرجل، فالأجهزة لا تقيس كل شيء، وكان هناك جانب كامل خارج نطاق التفسير.

توقفت الأسئلة هنا: هل كان يشعر؟ هل كان واعيًا؟ هل كان في حالة بين الحياة والموت؟

لم يكن هناك جواب، وكان هذا الصمت في الإجابة هو أخطر ما في التجربة؛ لأنه كشف أن هناك جانبًا من الإنسان لا يصل إليه العلم بسهولة، مهما تقدم.

• الزمن الذي توقف:

مرت الساعات، لكن الزمن لم يعد يُقاس كما كان، فقد توقف داخل الجسد، وكأن الرجل خرج من إطاره. وهنا يظهر سؤال أعمق: إذا توقف الزمن داخل الإنسان، فهل يعود كما كان؟

• ما بعد السكون:

إضاءة

- أصعب لحظات التجربة ليست في التنفيذ، بل في اتخاذ القرار الذي لا يمكن الرجوع عنه.

لم يكن السكون نهاية، بل مرحلة؛ لأن السؤال الحقيقي لم يكن: هل يمكن إيقاف الحياة؟

بل: هل يمكن إعادتها كما كانت؟

• العودة.. هل عاد كما كان؟

لم تكن لحظة العودة أقل خطرًا من لحظة التجميد، بل كانت أكثر تعقيدًا؛ لأن إيقاف الحياة كان مرتبطًا بالجسد، أما إعادتها فكانت تتعلق بشيء أعمق.

وقف العلماء يراقبون في صمت، ينتظرون إشارة تدل على أن الحياة يمكن أن تبدأ من جديد.

ثم اتُّخذ القرار.. وبدأت العملية.

لمحة

- أصغر علامة قد تكون بداية تحوُّل كبير، فالبدايات غالبًا تأتي هادئة لا يُلتفت إليها، لكنها تحمل في داخلها تغيُّرًا عميقًا.

• البداية العكسية:

بدأت الحرارة ترتفع تدريجيًّا، بنفس الحذر الذي انخفضت به، وتحركت المؤشرات ببطء، حتى أصبح الانتظار ثقيلًا.

ثم ظهرت أول إشارة.. حركة خفيفة، ثم أخرى.

قال أحد العلماء: هناك استجابة.

وكانت هذه بداية الأمل.

• عودة النبض:

ظهر نبض ضعيف، ثم تكرر، حتى بدأ القلب يستعيد إيقاعه، وكأن الحياة تعود خطوة خطوة.

ساد الصمت، ثم قال أحدهم: القلب يعمل. وكانت هذه لحظة إعلان عودة الجسد.

• العين التي فتحت:

تحرك الجفن ببطء، ثم فتحت العين، ونظر الرجل حوله وكأن العالم غير واضح، ثم قال بصوت ضعيف: أين أنا؟

كان السؤال بسيطًا في كلماته، لكنه عميق في معناه؛ لأنه لم يكن يسأل عن المكان فقط، بل عن حالته، وكأنه يحاول أن يفهم أين كان قبل أن يعود. وكان هذا دليلًا على عودة الوعي.

وقفة

- الوعي ليس مجرد إدراك المكان، بل إحساس الإنسان بنفسه.

• استعادة الذاكرة:

بدأت الأسئلة، وكانت الإجابات واضحة، فقد تذكر اسمه وبعض التفاصيل، وبدا أن كل شيء عاد إلى طبيعته.

لكن لم يكن الجميع مطمئنًّا، فقد كان هناك شعور بأن شيئًا ما لا يزال غامضًا.

• الشعور المختلف:

مع مرور الوقت، استعاد الرجل قُوَّته، لكنه شعر بشيء مختلف، وكأنه مرَّ بتجربة لا يمكن وصفها.

نافذة على الفكرة

- ليست كل التجارب قابلة للقياس، فبعضها يُفهم بالشعور لا بالأجهزة.

قال: كنت في مكان لا زمن فيه.. لم يكن هناك شيء، ومع ذلك كنت موجودًا.

وتوقف بعد هذه الكلمات، وكأنه يحاول أن يُعبِّر عن شيء لا تسعفه اللغة في وصفه، وكأن التجربة تركت داخله أثرًا لا يمكن تفسيره بسهولة.

• بداية القلق:

لم يعد السؤال: هل نجحت التجربة؟ بل: ماذا تعني؟
هل عاد الإنسان كما كان؟ أم تغير شيء لا يظهر؟
بدأ القلق، لا بسبب الفشل، بل بسبب النجاح.

وقفة

• بعض النجاحات تفتح أسئلة أكبر من الفشل؛ لأنها تكشف آفاقًا جديدة، وتضع الإنسان أمام مسئوليات لم يكن يفكر فيها من قبل.

• ما الذي تغيَّر؟

لم يكن التغيُّر في الجسد، بل في النظرة، في طريقة رؤية الحياة، وكأن التجربة كشفت له شيئًا لم يكن يراه من قبل. لم تعد التجربة حدثًا علميًّا فقط، بل أصبحت قضية تُناقش، وسؤالًا يواجه الجميع: هل يحق للإنسان أن يصل إلى هذا الحد؟ وهل يمكن أن يتحكم في الحياة دون أن يفقد معناها؟

• ما بعد التجربة.. حدود العلم وحدود الإنسان:

إضاءة

• الاكتشافات الكبرى لا تُغيِّر العلم وحده، بل تُغيِّر طريقة تفكير المجتمع، وتعيد تشكيل نظرته إلى نفسه وإلى ما يحيط به.

لم تعد التجربة حدثًا علميًّا فقط، بل أصبحت فكرة تتحرك في عقول الناس، وسؤالًا يتكرر في كل مكان، لقد نجح العلماء في إيقاف الحياة.. ثم إعادتها، لكن هذا النجاح لم يُنهِ القصة، بل بدأها من جديد.

• العالم ينقسم:

انقسم الناس في تقييم ما حدث، فبعضهم رأى فيه إنجازًا يمكن أن ينقذ المرضى ويمنح الإنسان فرصة جديدة للحياة، بينما رأى آخرون أنه باب لمخاطر لا يمكن التحكم فيها، لا بسبب التجربة نفسها، بل بسبب ما قد يترتب عليها إذا أُسيء استخدامها. لم يكن الخلاف حول ما حدث، بل حول ما يمكن أن يحدث بعده.

وقفة

• القيمة الحقيقية لأي اكتشاف لا تتحدد بقدرته، بل بطريقة استخدامه؛ فقد يكون الاكتشاف نافعًا إذا وُجِّه بحكمة، وخطرًا إذا أُسيء توظيفه.

أما الرجل، فقد بدا طبيعيًّا في ظاهره، لكنه لم يعد كما كان في داخله، فقد تغيرت نظرته إلى الحياة، فقد كان يرى الأشياء وكأنه يراها لأول مرة، وكأنه أدرك أن الحياة ليست مجرد حركة، بل معنى أعمق لا يُلاحظ بسهولة. قال: كنت موجودًا.. لكنني لم أكن أعيش كما نعيش الآن.

لم يعد السؤال: هل نستطيع؟ بل: هل يجب أن نفعل؟
فالعلم منح الإنسان قدرة كبيرة، لكن هذه القدرة تحتاج إلى وعي يوجهها؛ لأن ليس كل ما يمكن تحقيقه يجب السعي إليه.

نافذة على الفكرة

• العلم يمنح القدرة، لكن الحكمة هي التي تحدد اتجاهها، فهي التي توازن بين ما يمكن فعله وما ينبغي فعله.

• الخوف من النجاح:

وقفة

• بعض الأسئلة لا تحتاج إلى إجابة سريعة، بل إلى تفكير عميق؛ لأن التسرع في الحكم قد يحجب عنا ما في المسألة من تعقيد ومعنى.

لم يكن القلق هذه المرة من الفشل، بل من النجاح؛ لأن النجاح كشف عن إمكانات لم يكن الإنسان مستعدًّا لها.
هل يمكن أن يتحول الإنسان إلى حسد يمكن إيقافه وتشغيله؟
وهل يبقى إنسانًا إذا حدث ذلك؟

• الحقيقة:

رغم التقدم، بقيت حقيقة لا تتغير: الإنسان ليس مجرد جسد، والحياة ليست مجرد وظائف يمكن التحكم فيها.
قد يقترب الإنسان من فهم الحياة، لكنه لا يحيط بها بالكامل.

• النهاية:

وقف الرجل ينظر إلى العالم، وكل شيء كما هو، لكن إحساسه به لم يعد كما كان.

قال بهدوء: الحياة ليست أن نعيش فقط، بل أن نفهم لماذا نعيش.

وهنا تنتهي القصة لكن السؤال لا ينتهي؛ لأن كل إجابة يصل إليها الإنسان تفتح أمامه سؤالًا جديدًا، وكأن رحلة الفهم لا تتوقف.

حصاد قراءتي:

• أولًا: أفكّر

تتبَّع رحلة الصاروخ في بداية النص؛ كيف تغيَّرت مفاهيم «الزمن» و«المسافة» في هذا العالَم المستقبلي؟ وما السؤال الذي طرحه أحد الرجلين وأقلق الآخَر؟ وما التجربة العلمية الجريئة التي وافَق الرجل على خوضها؟ وما الخيط الرفيع الذي كان العلماء يتتبَّعونه بحذَر أثناء خفض حرارة جسده؟

• ثانيًا: أتأمَّل

عند وصول الجسد إلى درجة ما تحت الصفر، سكَن المكان وتوقَّف الزمن. تأمَّل هذا المشهد، وهل تعتقد أن غياب النبض والاستجابة في تلك اللحظة كان يعني «الموت» أم «السكون الخفي»؟

بعد عودته، قال البطل: «كنت في مكان لا زمن فيه.. ومع ذلك كنت موجودًا». تأمَّل هذه العبارة، وكيف يمكن لوعي الإنسان وفَهْمه لنفسه أن يتجاوز حدود الجسد المادي والأجهزة العلمية؟

• ثالثًا: أناقش

انقسَم الناس بعد نجاح التجرِبة إلى فريقين: فريق يراها إنجازًا لإنقاذ المرضى، وفريق يراها بابًا لمخاطر لا يمكن التحكُّم فيها. ناقِش مع زملائك مبرِّرات كل فريق، وبيِّن أيَّ الرأيين تراه أكثر واقعية.

جاء في النص: «لم يعد السؤال: هل نستطيع؟ بل: هل يجب أن نفعل؟». ناقش أهميَّة هذا التحوُّل في التفكير العلمي، وكيف يمكن للحكمة والضمير أن يوجِّها القدرة الهائلة التي يمنحها العلم للإنسان؟

• رابعًا: أربط بحياتي

في عصرنا الحالي ومع الطفرة الهائلة في التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، هل شعرت يومًا بأنَّنا نندفع نحو التقدُّم دون أن نسأل: «إلى أين نسير؟». اذكر مثالًا من حياتك اليومية يعكس هذا القلق.

ختم البطل القصة بعبارة: «الحياة ليست أن نعيش فقط، بل أن نفهم لماذا نعيش». كيف يمكنك تطبيق هذا المبدأ في تنظيم وقتك واختيار أهدافك المستقبلية؟

• خامسًا: أطبّق

تخيَّل أنَّك أحد العلماء الذين وقفوا يراقبون شاشات الأجهزة في «لحظة العودة العكسية». اكتب فقرة من ثلاثة أو أربعة أسطر تصف فيها المشاعر والأفكار التي دارت في رأسكَ عند رَصْد أول حركة خفيفة للجَفْن وعودة النبض الضعيف لقلب البطل.

• سادسًا: أوظِّف

ورَد في الوقفات التيسيرية للقراءة: «حين يقترب العِلْم من تشبيه الإنسان بالآلة، يصبح من الضروري أن نُعيد التفكير في معنى الإنسان». وظِّف هذا المعنى في كتابة لافتة إرشادية قصيرة لزملائك تحثهم فيها على تحقيق التوازن بين الانغماس في الألعاب والوسائل الرقمية، وبين الحفاظ على إنسانيتهم ومشاعرهم الحقيقية.

صبح النوم
يحيى حقي

صح النوم لـ «يحيى حقي»

نبذة عن حياته ونشأته:

اسمه «يحيى حقي»، عازف الكلمة ورائد من رواد القصة القصيرة والرواية في الأدب العربي الحديث. وُلد في القاهرة عام ١٩٠٥م في حي السيدة زينب العريق، وهو ما طبع في وجدانه حبًّا عميقًا للطبقات الشعبية وعاداتها وأوجاعها. تخرج في مدرسة الحقوق، وعمل بالمحاماة لفترة قصيرة، ثم في الإدارة المحلية بالصعيد، قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي الذي أتاح له السفر حول العالم والاطلاع على ثقافات الغرب، ورغم حياته الدبلوماسية الراقية وتنقله بين عواصم أوربا ظل قلبه معلقًا بحواري مصر وقُراها؛ فكان يكتب عن البسطاء والمهمشين والموظفين الصغار بعين فاحصة، وروح ساخرة، وقلب شديد الرحمة، ليصبح بحق «أديب البسطاء».

المحطات المهمة في حياته:

- **السلك الدبلوماسي والتنوع الثقافي:**

عمل كدبلوماسي في مدن كبرى مثل جدة، روما، باريس، وأنقرة، مما منحه رؤية موسوعية دمجت بين أصالة الشرق وحداثة الغرب دون أن يفقد هُويته المصرية.

- **رئاسة تحرير «المجلة»:**

تولى رئاسة تحرير مجلة «المجلة» المصرية، فجعل منها منبرًا حرًّا لاكتشاف المواهب الأدبية الشابة ورعايتها، وكان أبًا روحيًّا لجيل كامل من الكُتَّاب.

- **التكريمات الرفيعة:**

نال أرفع الأوسمة والجوائز، منها «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» (١٩٦٩)، و«جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي» (١٩٩٠)، ووسام الفنون من الطبقة الأولى.

التحديات التي واجهها:

- **تحدي لغة الكتابة:**

سعى طوال مسيرته لاختراع لغة أدبية فريدة تجمع بين جزالة وقوة الفصحى وحيوية وعذوبة العامية، لكي يصل أدبه إلى عقل المثقف وقلب الإنسان البسيط في آن واحد.

- **تحدي التوازن بين الوظيفة والإبداع:**

واجه صعوبة في التوفيق بين صرامة العمل الدبلوماسي وقيوده، وبين انطلاقة وحرية الأديب، لكنه نجح في أن يجعل من تجاربه الوظيفية وقودًا لكتاباته.

- **صدمة الحضارات:**

عاش صراعًا داخليًا إبان سفره لأوربا بين حضارة مادية مبهرة وحضارة شرقية روحانية متأخرة ماديًا، لكنه حوَّل هذا التحدي إلى جسر فكري وأدبي يطرح حلولًا للتصالح بين العقل والروح.

أهم الكتب والمؤلفات:

أثرى يحيى حقي المكتبة العربية بأعمال جمعت بين عمق الفكرة ورشاقة الأسلوب، ومن أهم أعماله:

- **«قنديل أم هاشم»:**

روايته الخالدة التي ناقشت بعبقرية صراع العلم والوجدان، والصدام بين ثقافة الشرق والغرب، وكيف يمكن التوفيق بينهما.

- **«البوسطجي»:**

رواية صوَّرت ببراعة وعمق مآسي الريف المصري وجموده وعاداته القاسية من خلال عيون موظف بريد مغترب.

- **«خليها على الله»:**

سيرة ذاتية أدبية تعكس محطات من حياته بأسلوب ساخر وعذب ومليء بالحكمة.

- **«صح النوم»:**

المجموعة القصصية الساخرة والعميقة التي بين أيدينا، والتي تغوص في أعماق المجتمع المصري لتحلل تحولاته وتنتقد جموده، وصدرت عام ١٩٥٥م.

وصف العمل الأدبي:

يتكون العمل من نصوص سردية وقصصية تُعد من عيون الأدب الاجتماعي الساخر. صدرت للكتاب طبعات تاريخية وحديثة شهيرة، أبرزها طبعات «دار المعارف» و«نهضة مصر».

• فكرة العمل:

هي دعوة وصرخة رمزية لإيقاظ العقول من غفلتها، ومن هنا جاء اسم «صح النوم». ترصد القصص بدقة حال الإنسان المصري البسيط في مواجهة التحولات الاجتماعية والحداثة المفاجئة (مثل تأثير دخول القطار إلى القرية)، مع توجيه نقد لاذع للروتين والبيروقراطية التي تعطل مسيرة الحياة.

• أبرز القيم التي يعالجها:

التماسك الاجتماعي، الرحمة، الحفاظ على الكرامة، أثر الكلمة الطيبة، قيمة العمل، وضرورة فهم الناس بإنصاف وتقييمهم من الداخل بعيدًا عن المظاهر الخادعة.

لم يكن يحيى حقي من الكُتَّاب الذين يفتنون القارئ بالصخب أو يطاردونه بالمفاجآت المتلاحقة. كان يعرف أن الحياة الحقيقية لا تسير دائمًا بصوت مرتفع، وأن أكثر ما يُغيِّر الإنسان قد يكون كلمة صغيرة، أو نظرة عابرة، أو موقفًا يمر به الناس ثم ينسونه، بينما يبقى أثره عالقًا في قلب شخص واحد إلى آخر عمره.

ولهذا جاءت قصصه قريبة من الناس؛ لا تبحث عن البطولة الخارقة، بل عن الإنسان العادي الذي يكدح ويحلم ويخاف ويخطئ ثم يواصل الحياة رغم كل شيء. وحين يقرأ المرء ليحيى حقي يشعر كأنه يجلس في بيت مصري قديم، يسمع حكاية يعرف أصحابها، أو يشبههم، أو يشبه واحدًا منهم على الأقل.

• قريتنا القديمة:

كانت القرية تستيقظ ببطء، كأن النوم لا يغادر عينيها بسهولة. لا شيء فيها يعرف العجلة؛ حتى الشمس كانت تبدو وكأنها تتسلل إلى الحقول على مهل، والناس يخرجون إلى أعمالهم في هدوء يعرفه الريف وحده.

في الفجر، كان الرجال يحملون أدواتهم ويتجهون إلى الأرض، بينما تنشغل النساء بخَبْز العجين وتنظيف البيوت. وكانت رائحة الطين المبلل تختلط بدخان الأفران وصوت الدِّيَكة، فتبدو القرية كلها كأنها بيت واحد كبير.

أما الأطفال، فكانوا يملئون الطرقات ضجيجًا وضحكًا. يركضون حفاة بين البيوت، ويتشاجرون قليلًا ثم يتصالحون سريعًا، كأن الخصام لا يعرف طريقًا إلى قلوبهم الصغيرة.

ولم تكن البيوت متجاورة فقط، بل كانت القلوب كذلك، إذا مرض رجل في آخر القرية عرف الناس جميعًا قبل المساء. وإذا عاد مسافر بعد غياب طويل، تحول اليوم إلى ما يشبه العيد الصغير.

• تأمل:

حين يشعر الإنسان أن الناس حوله يعرفونه ويهتمون به، تصبح الحياة أقل قسوة حتى في الأيام الصعبة.

• حديث المقهى:

كان في طرف القرية مقهى صغير يجتمع فيه الرجال بعد انتهاء العمل. لم يكن واسعًا ولا جميلًا، لكن الناس أحبوه لأنه يشبههم. مقاعده الخشبية القديمة تحفظ أصواتهم منذ سنوات طويلة، وصاحبه العجوز يعرف لكل رجل مكانه المعتاد وكوب الشاي الذي يُفضِّله.

هناك كانت تدور الأحاديث كل ليلة: حديث عن المطر، وعن الزرع، وعن الأسعار، وعن الدنيا التي تتغير ببطء.

وكان بين الجالسين رجل تجاوز الستين قليلًا، قليل الكلام، لكنه إذا تحدث أنصت الجميع. لم يكن متعلمًا، لكن الحياة علَّمته أشياء كثيرة لا توجد في الكتب.

وفي إحدى الليالي، دخل شاب يلهث من كثرة الجري، ثم قال بصوت مرتفع: سمعتم؟ سيبنون سكة حديد تمر من هنا!

ساد الصمت لحظة، ثم انفجرت الأسئلة دفعة واحدة.

قطار حقيقي؟ وهل سيمر قرب الحقول؟ ومن أين جاء الخبر؟

جلس الشاب وسطهم وهو يحكي بحماس شديد، بينما بدأت الدهشة تمتد من وجه إلى آخر.

• الخبر الجديد:

بعض الرجال فرحوا فورًا. تخيلوا السفر السريع، والبضائع القادمة من المدن، والأخبار التي ستصل بسهولة. أما آخرون، فبدت على وجوههم علامات القلق.

قال رجل وهو يهز رأسه: الدنيا حين تتحرك بسرعة.. لا نعرف دائمًا إلى أين تأخذ الناس.

ضحك شاب صغير وقال: أنتم تخافون من كل شيء جديد!

لكن الرجل العجوز لم يغضب. نظر إلى الشاب بهدوء ثم قال: ليس الخوف من الجديد عيبًا.. العيب أن ينسى الإنسان نفسه وهو يجري وراءه.

بقيت العبارة معلقة في الجو، بينما انشغل كل واحد بتفكيره الخاص.

وفي الأيام التالية أصبحت السكة الحديدية حديث القرية كلها. النساء يتحدثن عنها عند الأفران، والرجال يتناقشون حولها في الحقول، أما الأطفال فكانوا يطلقون خيالهم الصغير في رسم صورة القطار الذي لم يروه بعد.

إضاءة

• التغيير لا يصبح خطرًا حين يدخل حياتنا، بل حين يجعل الإنسان يبتعد عن الأشياء التي تمنحه المعنى والطمأنينة.

• شرارة الوعي.. «الأستاذ»:

وسط هذا الترقب، برزت شخصية «الأستاذ»، الذي لم يكتفِ بمشاهدة القطار وهو يعبُر، بل كان يحمل مشروعًا لإيقاظ القلوب. لم يكن الأستاذ يرى في القرية «هدوءًا ريفيًّا»، بل كان يراه «صمتًا وخضوعًا» يحتاج إلى كسر. بدأ يُحرِّض الناس على المطالبة بحقوقهم، ويدعوهم لترك الكسل والاعتماد على الذات، وكان هو الدافع الحقيقي وراء التفكير في بناء المحطة وتغيير واقع القرية. لقد مثَّل الأستاذ «العقل المستنير» الذي يسبق الفعل، ويؤمن بأن التغيير المادي (القطار) لا قيمة له إن لم يسبقه تغيير في وعي الإنسان نفسه.

• أول العمال:

وفي صباحٍ باكرٍ، دخل أول العمال إلى القرية. كانت ملابسهم ولهجاتهم مختلفة قليلًا؛ ولذلك راقبهم الناس بفضول وحذر معًا.

شيئًا فشيئًا بدأت الأرض الهادئة تهتز تحت ضربات المعاول، وتحولت المساحات الصامتة إلى حركة لا تتوقف. وقف الرجال بالساعات يتأملون ما يحدث، بينما كانت النساء تتابعن المشهد من بعيد وفي عيونهن شيء من القلق.

أما الأطفال، فكانوا أكثر الناس حماسًا. جلسوا قريبًا من مكان العمل يراقبون الرجال وهم يرفعون القضبان الثقيلة ويثبتونها في الأرض، ثم يعودون إلى بيوتهم ليقلدوا ما رأوه بعِصِي طويلة يتخيلونها قضبانًا حقيقية.

وكان أكثرهم شرودًا فتى نحيل يقف طويلًا قرب السكة الحديدية، ويتأمل الطريق الممتد أمامه كأنه يرى عالمًا آخر لا يعرفه أحد غيره.

• معركة الهدم والبناء:

لم يمرَّ مشروع السكة الحديد بسلام، بل واجه مقاومة من القوى التي كانت تستفيد من بقاء الناس في غفلتهم. كانت «الحانة» القديمة في القرية تمثل بؤرة الكسل والهروب من الواقع، وكان «الأستاذ» يرى أن بناء المحطة لا يكتمل إلا بهدم كل ما يُغيِّب وعي الناس؛ فالتغيير الحقيقي يتطلب شجاعة للتخلي عن العادات البالية التي تشد الإنسان إلى الخلف؛ وهو صراع دائم بين «قوى الجمود» التي تريد للنوم أن يستمر، و«قوى اليقظة» التي تفتح الأبواب للنور.

• أحلام بعيدة:

كان الفتى يشعر أن القرية صغيرة على أحلامه. كلما نظر إلى القضبان الجديدة تخيل مدنًا بعيدة، وشوارع واسعة، ووجوهًا لا يعرفها.

وكان يعود إلى البيت شاردًا، فتسأله أمه: أين كنت؟

فيجيب مبتسمًا: أشاهد الدنيا وهي تقترب منا.

فتضحك المرأة دون أن تفهم تمامًا ما يقصده.

أما الرجل العجوز، فقَدْ سَمِعَه مرة يقول تلك العبارة، فتأمله طويلًا ثم قال: بل ربما أنتم الذين ستبتعدون عن قريتكم.

سكت الفتى، لكنه ظل يفكر في الكلمات طويلًا تلك الليلة.

تأمل

- بعض اللحظات تبدو قصيرة جدًّا، لكنها تُغيِّر نظرة الإنسان إلى العالم كله.

• انتظار القطار:

مرَّت الأيام سريعًا، حتى جاء الخبر الذي انتظرته القرية طويلًا: القطار سيصل اليوم لأول مرة.

خرج الرجال من الحقول مبكرًا، ووقفت النساء أمام البيوت، بينما ركض الأطفال في الطريق الترابي وهم يصرخون بحماس.

حتى الرجل العجوز جاء وجلس قريبًا من القضبان، يراقب الوجوه أكثر مما يراقب الطريق نفسه.

وفجأة، شقت الهواء صفارة طويلة قوية، ثم ظهر القطار من بعيد كأنه شيء أسود ضخم يتحرك بسرعة لا تشبه أي شيء عرفته القرية من قبل.

اتسعت عيون الأطفال، وتراجع بعض الرجال خطوة إلى الخلف، بينما ظلت النساء يراقبن المشهد في صمت مشوب بالدهشة.

وكان القطار يقترب شيئًا فشيئًا حتى صار صوته يهز الأرض تحت الأقدام.

• صفارة تهز القرية:

وحين مرَّ القطار أخيرًا أمامهم، ظل الأطفال يركضون خلفه وهم يضحكون، بينما بقي الكبار واقفين في أماكنهم كأنهم فقدوا القدرة على الكلام.

قال رجل بصوت منخفض: سبحان الله!.. كأن الدنيا كلها تمر أمامنا.

أما الرجل العجوز، فقد ظل صامتًا وقتًا طويلًا، ثم قال: من اليوم.. لن تبقى القرية كما كانت.

ولم يكن يقصد البيوت أو الطرق فقط، بل شيئًا أعمق من ذلك بكثير.

فالتغيير الحقيقي لا يبدأ من الأشياء.. بل يبدأ من داخل الإنسان نفسه.

• أصوات جديدة:

لم يعد القطار بعد أيام قليلة شيئًا غريبًا كما كان في بدايته؛ فالإنسان يندهش أول الأمر، ثم يعتاد، ثم يتعامل مع أعجب الأشياء كأنها جزء طبيعي من حياته.

صار صوت الصفارة يدخل القرية كل صباح ومساء، حتى إن بعض الأطفال أصبحوا يعرفون الوقت من مروره.

فإذا سمعوه في الصباح أسرعوا إلى مدارسهم، وإذا سمعوه ليلًا عرفوا أن الوقت تأخر، وأن الأمهات سيبدأن النداء من خلف الأبواب.

لكن الاعتياد لا يعني أن التغيير توقف.

فالأشياء الجديدة، حين تدخل حياة الناس، لا تُغيِّر الطرق والشوارع فقط، بل تُغيِّر نظرتهم إلى أنفسهم أيضًا.

بدأ بعض شباب القرية يذهبون إلى المدينة ثم يعودون بملابس مختلفة وكلمات جديدة وطريقة كلام لم يألفها الناس من قبل. وكان الواحد منهم يعود وفي عينيه شيء من الزهو، كأنه رأى الدنيا كلها وعاد يحمل سرًّا لا يعرفه الآخرون.

أما الكبار، فقد ظلوا أكثر حذرًا. كانوا يشعرون أن الزمن يجري أسرع مما اعتادوا، وأن الأيام لم تعد تمشي بالهدوء نفسه الذي عرفوه في شبابهم.

• سهرات تتغير:

كانت ليالي القرية قديمًا طويلة ودافئة. يجلس الرجال أمام البيوت أو في المقهى الصغير، ويتبادلون الحكايات حتى وقت متأخر من الليل. وكانت النساء يتزاورن بسهولة، بينما ينام الأطفال على أصوات الضحك والكلام.

لكن شيئًا خفيًّا بدأ يتبدل.

لاحظت النساء أن بعض البيوت لم تعد تُفتح كما كانت، وأن السهرات القديمة بدأت تقل، وأن الناس صاروا ينشغلون بأمورهم أكثر من انشغالهم بالجيران.

وكان في القرية رجل بسيط يعمل طوال النهار في أرضه، ثم يعود آخر المساء متعبًا، لكنه لا ينام قبل أن يجلس قليلًا أمام بيته. اعتاد أن يمرّ عليه الجيران، فيتحدثون عن الزرع والمطر وأخبار الناس، وكان يشعر وهو يسمع أصواتهم أن التعب يخف شيئًا فشيئًا.

لكن الأيام الأخيرة صارت مختلفة.

قلّ الجالسون، وقلّ الكلام، وأصبح كل واحد يعود إلى بيته كأنه يحمل همومه وحده.

وفي إحدى الليالي، قال الرجل لزوجته: لا أدري.. الناس موجودون، لكن القرية لم تعد كما كانت.

لم تُجِبه المرأة سريعًا. كانت هي الأخرى تشعر بهذا التبدل الخفي، لكنها لم تجد له اسمًا واضحًا.

• الشاب الذي حلم بالمدينة:

وكان أكثر من تغيَّر ذلك الفتى النحيل الذي اعتاد الوقوف قرب السكة الحديدية. ظل سنوات يتأمل القطار وهو يجيء ويذهب، حتى صار يشعر أن جزءًا من قلبه يسافر معه كل مرة.

كان يرى في المدينة حياة أكبر من حدود القرية الضيقة. تخيل شوارع واسعة، ومحال مضيئة، وأناسًا لا يعرف أحد منهم الآخر، ولذلك لا يسألونه أين يذهب أو لماذا تأخَّر أو ماذا يريد أن يفعل بحياته.

وحين سنحت له الفرصة أخيرًا، سافر.

ودعته أمه بعينين دامعتين، وهي تحاول أن تبدو قوية أمامه.

قالت له: مهما ابتعدت.. لا تنسَ الطريق إلى بيتك.

ابتسم الفتى بثقة الشباب، وظن أن الطريق لا يمكن أن يضيع أبدًا.

أما الشيخ، فقد صافحه طويلًا قبل الرحيل ثم قال: الدنيا واسعة يا ولدي.. لكن القلب أضيق مما نظن.

لم يفهم الشاب العبارة حيدًا في ذلك الوقت، لكنه حملها معه دون أن يشعر.

• المدينة الكبيرة:

في المدينة، انشغل الشاب بالحياة الجديدة. كل شيء هناك يتحرك بسرعة؛ الشوارع، والناس، والعربات، وحتى الوقت نفسه بدا مختلفًا.

في البداية شعر بسعادة حقيقية. كان يظن أنه خرج أخيرًا من العالم الصغير الذي ضاق به طويلًا، وأنه صار قريبًا من الحياة التي حلم بها.

لكن الأيام كشفت له شيئًا آخر.

فالمدينة الكبيرة، رغم ازدحامها، قد تجعل الإنسان أكثر وحدة أحيانًا.

كان يسير بين الناس فلا يلتفت إليه أحد، ويعود متعبًا فلا يجد من يسأله كيف كان يومه. لا أحد يعرفه، ولا أحد ينتظره، ولا أحد يشعر إن كان حزينًا أو متعبًا.

وفي إحدى الليالي، بينما كان يسير وحده وسط الشوارع المزدحمة تذكر فجأة ليالي القرية الهادئة، وصوت أمه، والرجال الجالسين أمام البيوت، وحتى الطريق الترابي الذي كان يراه مملًا في صغره.

وحينها فقط فهم لماذا كان الناس يعودون دائمًا إلى أماكنهم الأولى مهما ابتعدوا.

• عودة مختلفة:

تعلَّم

- قد تمنحنا الحياة أماكن جديدة وتجارب كثيرة، لكن الإنسان يظل محتاجًا إلى من يشعر معه بالألفة والانتماء.

وحين عاد الشاب إلى القرية بعد شهور طويلة، لم يكن الشخص نفسه الذي سافر.

لاحظ الناس ذلك فورًا.

لم يعد يتحدث كثيرًا كما كان، وصارت نظرته أهدأ، كأن المدينة أضافت إلى عمره سنوات لم يعشها فعلًا، بل شعر بها فقط.

وفي مساء هادئ، جلس مع الرجل العجوز أمام المقهى الصغير. ظل الاثنان صامتَيْن وقتًا طويلًا، بينما كان القطار يمر من بعيد بصوته المعتاد.

ثم سأله الشيخ: ها.. هل وجدت الدنيا التي كنت تبحث عنها؟

ابتسم الشاب ابتسامة خفيفة وقال: وجدت دنيا كبيرة.. لكنني لم أجد فيها قلوبًا كثيرة.

نظر إليه الرجل العجوز طويلًا، ثم قال: لهذا يعود الناس دائمًا.

ولم يكن يقصد العودة إلى المكان وحده، بل العودة إلى الشعور الذي يجعل الإنسان مطمئنًا، مهما كانت حياته بسيطة.

• زمن مختلف:

ومع مرور الوقت، بدأت القرية تتعلم كيف تعيش مع القادم الجديد. لم يعد القطار مجرد آلة تعبُر الطريق، بل صار جزءًا من حياة الناس نفسها.

صار الفلاح يبيع محصوله أسرع، وأصبح الوصول إلى المدينة أسهل من قبل، ووصلت إلى القرية أشياء لم يكن أهلها يعرفونها. أقمشة حديدة، وأدوات غريبة، وأخبار تأتي من أماكن بعيدة لم يكن أحد يذكر أسماءها من قبل.

اربط بحياتك

• ليس كل اختلاف بين الأجيال سببه سوء الفهم؛ أحيانًا يكون السبب أن كل جيل عاش زمنًا مختلفًا ورأى الدنيا بطريقة مختلفة.

وكان بعض الناس يرون في ذلك نعمة كبيرة. أما آخرون، فظلوا يشعرون أن شيئًا ما يتسلل بهدوء من بين أيديهم دون أن يستطيعوا الإمساك به.

فالإنسان حين تتغير حياته لا تتغير الأشياء من حوله فقط، بل تتغير رغباته أيضًا.

كان الأطفال الذين يركضون خلف القطار بالأمس يحلمون الآن بالسفر والعمل والمال، وأصبح بعضهم ينظر إلى حياة الآباء نظرة مختلفة؛ حياة متعبة وبطيئة ومحدودة.

وكان الآباء يشعرون بذلك، حتى لو لم يقولوه صراحة.

يرون أبناءهم يبتعدون عن الأرض قليلًا قليلًا، ويقتربون من عالم لا يعرفونه جيدًا. ولم يكن يؤلمهم أن يتغير الزمان، بقدر ما كان يؤلمهم أن تضيع تلك الروابط القديمة التي جعلت البيوت متماسكة رغم الفقر والتعب.

• نصيحة الجد:

في إحدى الأمسيات، جلس رجل مسن أمام بيته يتأمل حفيده الصغير وهو يتحدث بحماس عن المدينة. كان الطفل يُقلِّد أصوات السيارات والباعة والقطارات، ويتكلم كأنه رأى عالمًا ساحرًا لا يشبه هذه القرية الهادئة.

وقفة

• بعض النصائح لا يفهمها الإنسان حين يسمعها أول مرة، لكنه يتذكرها بعد سنوات طويلة حين يمر بالتجربة نفسها.

ابتسم الجد أول الأمر، ثم قال بصوت خافت: المدينة جميلة.. لكن لا تجعلها تأخذ قلبك كله.

لم يفهم الطفل معنى العبارة، فضحك وانطلق يجري خلف أصدقائه، بينما ظل الرجل العجوز يتابعه بعينين امتلأتا بشيء يشبه الحنين.

كان يتذكر شبابه القديم، والأيام التي كانت القرية فيها أكثر هدوءًا وأقرب إلى بعضها. لكنه لم يكن يكره الزمن الجديد، بل كان يخاف فقط أن يفقد الناس قدرتهم على الشعور ببعضهم.

تأمل

• حين نحصل على شيء جديد، ننسى أحيانًا أن نشكر الحياة عليه، وننشغل فقط بالخوف من فقدانه.

• حين توقَّف القطار:

وفي يوم من الأيام، تعطلت السكة الحديدية لساعات طويلة بسبب عطل مفاجئ. توقَّف القطار، وتعطلت الحركة، وبدأ الناس يتذمرون.

كان بعضهم ينتظر بضائع، وبعضهم يريد السفر، وآخرون اعتادوا فقط رؤية القطار في موعده اليومي.

شعر كثيرون أن الدنيا تعطلت كلها؛ لأن القطار تأخر ساعات قليلة.

لكن رجلًا عجوزًا كان يجلس قريبًا من المحطة ظل يراقب الوجوه بصمت، ثم قال مبتسمًا: سبحان الله.. زمان كنا نعيش بلا قطار، وكانت الدنيا تسير. واليوم تأخر قليلًا فشعر الناس أن الحياة توقفت.

ضحك بعض الجالسين، لكن الكلمات تركت أثرًا في نفوسهم.

فالإنسان يعتاد النعمة سريعًا، ثم ينسى كيف كان يعيش قبلها.

• الرجل القاسي:

وكان بين أهل القرية رجل عُرف بقسوته. لا يبتسم كثيرًا، ولا يحامل أحدًا، ويتعامل مع الناس بصرامة جعلت الأطفال يخافونه والرجال يتحاشون الحديث معه إلا عند الضرورة.

فكِّر

• كثير من الناس يخفون مشاعرهم الحقيقية خلف طباع تبدو قاسية؛ ولذلك لا ينبغي أن نتسرع في الحكم عليهم.

وكان الناس يظنون أن قلبه حاف مثل صوته الحاد.

لكن الحقيقة لم تكن بهذه البساطة.

ففي ليلة باردة، مرض طفل فقير مرضًا شديدًا، واحتاج أهله إلى دواء سريع لا يملكون ثمنه. تردد الأب طويلًا قبل أن يطرق باب ذلك الرجل القاسي؛ لأنه لم يكن يتوقع منه خيرًا.

فتح الرجل الباب بضيق، واستمع إلى الكلمات القليلة التي قالها الأب المرتبك، ثم عاد إلى الداخل دون تعليق.

ظن الرجل الفقير أنه رفض مساعدته، فأدار ظهره وهو يشعر بثقل أكبر من الفقر نفسه.

لكن الباب فُتح مرة أخرى سريعًا، وخرج الرجل يحمل المال والدواء معًا، ثم قال بلهجته الحادة المعتادة: اذهب بسرعة بدل الوقوف هنا.

أخذ الأب الأشياء في دهشة، ولم يجد ما يقوله. أما الرجل، فأغلق الباب سريعًا كأنه يخجل أن يراه أحد وهو يفعل الخير.

وفي صباح اليوم التالي، عادت القرية تتحدث عنه بالطريقة نفسها: الرجل القاسي.

ولم يعرف أكثر الناس ما حدث في تلك الليلة.

لكن الطفل الذي شُفي، وأباه الذي عاد مطمئنًّا عرفا أن الإنسان لا يُفهم دائمًا من مظهره أو طريقته الخشنة.

• ما يبقى في القلوب:

ومرَّت الأيام، وظل القطار يجيء ويذهب، بينما بقيت القرية تحاول أن تجد توازنها بين زمنين: زمن قديم تعرفه وتحبه، وزمن جديد يفتح لها أبوابًا لم تعهدها من قبل.

وكان بعض الناس يظنون أن التغيير يعني أن ينسى الإنسان ماضيه، لكن الحياة كانت تعلمهم ببطء أن الإنسان يستطيع أن يتقدم دون أن يقطع الجذور التي تمنحه الدفء والمعنى.

وفي صباح هادئ، انتشر خبر وفاة امرأة عجوز كانت تعيش وحدها في طرف القرية. لم تكن تملك أرضًا واسعة، ولا مالًا كثيرًا، لكن جنازتها كانت كبيرة على نحو أدهش الجميع.

خرج الرجال والنساء والأطفال يودعونها بحزن صادق، كأن الراحلة كانت أمًّا لكل واحد منهم؛ فقد عاشت عمرها تساعد الناس بصمت؛ مرة بطبق طعام، ومرة بكلمة طيبة، ومرة بدعاء صادق في وقت ضيق.

وحين عاد الناس من المقابر، قال أحد الشبان: غريبة.. لم تكن تملك شيئًا، ومع ذلك أحبها الجميع.

فردَّ الرجل العجوز: بل كانت تملك أهم شيء.

سأله الشاب: وما هو؟

قال: قلبًا خفيفًا على الناس.

وظل الشاب يفكر طويلًا في العبارة، بينما كان القطار يمر من بعيد بصوته الطويل، كأنه يذكر القرية كلها أن الزمن يمضي دائمًا، لكن بعض الأشياء وحدها تبقى: الرحمة، والألفة، وأثر القلوب الطيبة.

• ليل القرية:

وكان الليل، حين يهبط على القرية، يعيد إلى الأشياء هدوءها القديم. تختفي الضوضاء القليلة التي جاءت مع الزمن الجديد، وتعود الحقول ساكنة تحت ضوء القمر، كأن الأرض نفسها تريد أن تستريح من تعب النهار الطويل.

في تلك الساعات الهادئة، كان الناس يقتربون أكثر من أنفسهم. فالنهار يشغل الإنسان بالحركة والعمل والكلام، أما الليل فيتركه وحيدًا أمام أفكاره.

تعلَّم

• ليست الطمأنينة في كثرة ما نملك، بل في شعور الإنسان أنه ليس غريبًا عن المكان والناس والحياة.

وكان الرجل العجوز يجلس كل ليلة تقريبًا أمام بيته الصغير، يحمل كوب الشاي في يده، وينظر إلى الطريق الممتد نحو السكة الحديدية. لم يكن ينتظر أحدًا، لكنه أحب أن يتأمل الحياة وهي تمر أمامه بهدوء.

وفي إحدى الليالي، مرَّ به الشاب الذي عاد من المدينة، فدعاه إلى الجلوس.

جلس الاثنان في صمت طويل، بينما كانت أصوات الليل تأتي متفرقة من بعيد:

نباح كلب، وصوت حشرة بين الزرع، وصفارة قطار خافتة تشق السكون ثم تختفي.

ثم قال الشيخ فجأة: الدنيا تغيَّرت كثيرًا.. لكن الإنسان ما زال يبحث عن الشيء نفسه.

سأله الشاب: وما هو؟

ابتسم الرجل العجوز وقال: الطمأنينة.

ساد الصمت مرة أخرى، لكن الكلمة بقيت تدور في ذهن الشاب طويلًا.

فقد ظن سنوات أن الطمأنينة تأتي من السفر والمال ورؤية العالم، ثم اكتشف أن الإنسان قد يملك أشياء كثيرة ويبقى قلبه قلقًا.

وكانت القرية، رغم بساطتها وفقرها، تعرف أحيانًا كيف تمنح أبناءها هذا الشعور الذي لا يُشترى.

• الرجل الذي عاد متعبًا:

وفي أحد المواسم، عاد إلى القرية رجل قضى سنوات طويلة في المدينة. جاء مرتديًا ملابس أنيقة، يتحدث بثقة كبيرة، ويحكي عن الأعمال والأسواق والناس المهمين الذين يقابلهم.

احتمع حوله أهل القرية يستمعون بإعجاب، بينما ظل هو يتحدث كأنه يريد أن يقنع نفسه قبل أن يقنعهم بأنه صار شخصًا آخر.

تأمل

• كل إنسان يخوض معركة لا يعرفها الآخرون؛ ولذلك يكون اللطف أحيانًا أعظم ما يمكن أن نقدمه لبعضنا.

وكان الأطفال ينظرون إليه بانبهار، أما الكبار فكانوا أكثر هدوءًا؛ فهم يعرفون أن الحياة ليست دائمًا كما تبدو من الخارج.

وفي آخر الليل، جلس الرجل وحده أمام البيت القديم الذي وُلِد فيه. اقترب منه الشاب العائد من المدينة سابقًا، فوجده شاردًا على غير عادته.

قال له: ما بك؟ ظننت أنك سعيد بحياتك الجديدة.

ابتسم الرجل ابتسامة متعبة وقال: أنا سعيد.. لكن الإنسان يتعب أحيانًا من التظاهر بالقوة طوال الوقت.

كانت الجملة صادقة إلى درجة جعلت الشاب يصمت.

فقد أدرك فجأة أن كثيرًا من الناس يبدون ناجحين ومطمئنين من الخارج، بينما يخفون تعبًا لا يراه أحد.

• صح النوم:

ومع مرور السنوات، صار القطار جزءًا من حياة القرية مثل الشمس والمطر وتعاقب الفصول. لم يعد الأطفال يركضون خلفه كما فعلوا أول مرة، ولم يعد الناس يخرجون جميعًا لمشاهدته بدهشة.

لكن أثره بقي داخلهم؛ فقد غيَّر نظرتهم إلى العالم، وفتح أمامهم أبوابًا جديدة، وجعلهم يدركون أن الحياة أكبر بكثير مما كانوا يظنون.

ومع ذلك، بقيت أشياء كثيرة تقاوم التغيُّر: دفء البيوت القديمة، والكلمة الطيبة، وجلوس الناس معًا وقت الشدة، وذلك الشعور الخفي بأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده مهما ظن أنه قوي.

وفي مساء هادئ، وقف الشاب يتأمل القطار وهو يبتعد في الظلام. لم يعد يراه بالطريقة نفسها التي رآه بها في صغره. لم يعد مجرد طريق للهروب أو الحلم، بل صار يشبه الحياة نفسها..

يمضي دائمًا، ولا ينتظر أحدًا، لكن الإنسان وحده هو الذي يختار ماذا يحمل معه أثناء الرحلة.

أما الرجل العجوز، فقد ظل ينظر إلى القطار كل مرة بالابتسامة الهادئة نفسها، كأنه فهم أخيرًا معنى الرحلة كلها.

فالقطار لم يأتِ فقط ليُغيِّر الطريق، بل جاء ليوقظ الناس من نومٍ طويل، ويجعلهم يرون أنفسهم والعالم بطريقة مختلفة.

وربما لهذا كان اسم المجموعة القصصية: صح النوم.

حصاد قراءتي:

• أولًا: أفكر

تتبَّع كيف تغيَّرت نظرة أهل القرية إلى حياتهم بعد دخول القطار.. ما الأشياء التي تبدلت في أفكارهم وعلاقاتهم وأحلامهم؟

كيف تطوَّر شعور الشاب الذي حلم بالمدينة منذ وقوفه أمام السكة الحديدية لأول مرة حتى عودته إلى قريته من جديد؟

• ثانيًا: أتأمل

لماذا قد يشعر الإنسان أحيانًا بالحنين إلى الأشياء البسيطة التي كان يظنها عادية أو مملة؟

هل التقدُّم الحقيقي يعني أن يبتعد الإنسان عن جذوره وحياته القديمة، أم يمكنه أن يتطور دون أن يفقد نفسه؟

• ثالثًا: أناقش

هل كان كبار القرية مُحقِّين في قلقهم من التغييرات التي جاء بها القطار، أم أنهم كانوا يبالغون في الخوف من الجديد؟ وضِّح رأيك.

في رأيك، هل المشكلة في التغيُّر نفسه، أم في الطريقة التي يتعامل بها الإنسان معه؟

• رابعًا: أربط بحياتي

هل مررت بتجربة شعرت فيها أن مكانًا قديمًا أو أشخاصًا اعتدت وجودهم أصبحوا أكثر قيمة بعد أن ابتعدت عنهم؟

كيف يمكن للإنسان أن يستفيد من التطور والحياة الحديثة دون أن يفقد دفء العلاقات الإنسانية أو إحساسه بالانتماء؟

• خامسًا: أطبق

تخيَّل أنك واحد من شباب القرية الذين شاهدوا القطار لأول مرة، ثم كبرت وسافرت إلى المدينة وعشت سنوات طويلة بعيدًا عن قريتك.. اكتب في ثلاثة أو أربعة أسطر ماذا تعلَّمت من رحلتك، وما الأشياء التي اكتشفت أنها الأهم في حياة الإنسان.

• سادسًا: أوظف

استخدم الكاتب تقنية «الرمزية» كإحدى تقنيات السرد، والمقصود بها استخدام رمز للدلالة على معنى أعمق. فسِّر ذلك في ضوء فهمك لما يرمز إليه القطار في المجموعة القصصية، مدلِّلًا على تفسيرك بما ورد في النص.

أسئلة عامة على الكتاب

١- وازِن بين الفكرة الرئيسة في كل من رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي، ورواية (كفاح طِيبة) لنجيب محفوظ، من حيث موقف كل عمل من قضية الصراع بين الفرد والمجتمع / السلطة، مع توضيح أوجه التشابه والاختلاف بينهما في معالجة هذه الفكرة.

.....

.....

.....

.....

.....

٢- وازِن بين كتاب «شمس وليل» وقصة «رجل تحت الصفر» من ناحية: طبيعة الرحلة، والموقف من العلم، وطبيعة النص الأدبي في كليهما.

.....

.....

.....

.....

.....

٣- وازِن بين رواية (الأرض) ورواية (صح النوم) من حيث: فكرة العمل والقِيَم الأخلاقية، والجمالية، والاجتماعية المتضمنة فيهما.

.....

.....

.....

.....

.....

فريق العمل

تأليف

* د. جبريل أنور حميدة
* د. هانم أحمد عبد الفتاح

مراجعة

* أ.د. حسن شحاتة
* أ.د. إيمان هريدي
* أ.د. يوسف عبد الفتاح
* أ.د. عبد الرازق مختار
* د. إسماعيل عبد العاطي
* د. كمال عوض الله
* أ. سلوى عبد اللّه أمين

تنفيذ وإخراج فني

قطاع المحتوى

بمؤسسة سلاح التلميذ للطبع والنشر

الإشراف العام

د/ جبريل أنور حميدة

رئيس الإدارة المركزية لتطوير المناهج

جميع الحقوق محفوظة © وزارة التربية والتعليم والتعليم الفني بجمهورية مصر العربية

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المنتج، أو تخزينه في نظام لاسترجاع المعلومات، أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة - إلكترونية أو تصويرية أو تسجيلية أو غير ذلك - دون الحصول على إذن كتابي مسبق من وزارة التربية والتعليم والتعليم الفني.

سلاح التلميذ
الإدارة المركزية لتطوير المناهج
Central Administration Of Curriculum Development
CACD
AL AZHAR AL SHARIF